مراحل نشأة التبشير (التنصير)

تأليـف

أ . د/ محمد محمد محمد إبراهيم كركور
أستاذ مساعد بقسم الأديان والمذاهب
جامعة الأزهر
كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة
قسم الأديان والمذاهب

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

من ١٤٨٣ إلى ١٦١٦

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله ، وصفيه من خلقه وحبيبه ، صلِّ اللهم وسلم وبارك على هذا النبي الأمين وعلى آله وصحبه الغر الميامين ... أما بعد ...

فإن من رحمة الله تعالى بالبشرية أن أرسل رسله لهدايتهم وإقامة الحجة عليهم ، قال تعالى : " رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " (سورة النساء : الآية ١٦٥) ، وجعل مهمتهم الأساسية هي الدعوة إلى الرسالة التي جاءوا بها بالبشارة والنذارة ، قال تعالى : "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين " (سورة البقرة : الآية ٢١٣) . فالدعوة إلى الدين والتبشير به مهمة كل رسول ، وهو مهمة سيدنا عيسى" عليه السلام " الذي بشر بخاتم النبيين سيدنا محمد " صلى الله عليه وسلم " ، قال تعالى على لسان سيدنا عيسى " عليه السلام " : " ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد " (سورة الصف : الآية ٦) .

وبداية التبشير بالرسالة التي جاء بها عيسى " عليه السلام " ، ترجع إلى نبي هذه الرسالة ، الذي دعا قومه إلى توحيد الله وعبادته ، إلا أنه بعد سيدنا عيسى " عليه السلام " ، حُرِّفت هذه الرسالة ، وتم الخروج بها من المحلية إلى العالمية على يد " بولس " ، وقنَّن " قسطنطين الكبير " هذا الإمبراطور الروماني ذلك التحريف بدعمه لقرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، التي أقرت التثليث وحاربت التوحيد وأهله ، ثم كانت الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين من الزمان ، والتي فشل فيها الصليبيون عسكريا ، وأيقن الغرب أنه لا سبيل للسيطرة على المسلمين بالوسائل العسكرية ، بل بالحرب الفكرية والغزو الثقافي ، ومن هنا أفرزت تلك الحروب حركة تبشيرية (تنصيرية)

منظمة ، ظلت تتسلل بكل الطرق إلى بلاد الإسلام ، لتؤدي الدور الذي عجزت عن القيام به الحروب الصليبية .

وهذا البحث معنيٌّ ببيان نشأة التبشير (التنصير) ، من خلال تلك المراحل الثلاث الرئيسة ، والتي حُرِّفت فيها رسالة المسيح عيسى " عليه السلام " وتم الخروج بها من المحلية إلى العالمية ، وهذا يجعل التبشير في تلك المراحل تنصيرا .

المرحلة الأولى : وقد بدأت هذه المرحلة بعد مجمع أورشليم سنة ٥٠ م وعلى يد " بولس " ، الذي حرَّف رسالة سيدنا عيسى " عليه السلام " ، وحولها من ديانة توحيد إلى ديانة تثليث ، ثم خرج بها من إطارها الإقليمي بكونها رسالة خاصة ببني إسرائيل ، إلى الإطار العالمي .

المرحلة الثانية : وقد بدأت هذه المرحلة في القرن الثالث الميلادي ، حين أعلن " قسطنطين الكبير " الإمبراطور الروماني دخوله في المسيحية ، واعترف بها ضمن ديانات الدولة الرومانية ، وأصدر مرسوما يدعو إلى التسامح مع المسيحيين ، وفي سنة ٣٢٥ م عُقد مجمع نيقية الذي ناصر فيه الإمبراطور الروماني النصارى المثلثين وهم قلة على الموحدين ، وهم الغالبية العظمى .

المرحلة الثالثة : وقد بدأت هذه المرحلة بعد فشل الحروب الصليبية في السيطرة على المسلمين وبلادهم ، فأعد الغرب الصليبي العدة لحربه الفكرية الجديدة ، وجنَّد جيوشا من المبشرين والقساوسة والرهبان المتعصبين لنصرانيتهم والحاقدين على الإسلام والمسلمين ، وأغدق عليهم من الأموال ما يحفزهم لأداء عملهم في تنصير المسلمين ، أو توهين قواهم في المرحلة الأولى ليسهل تنصيرهم ، وبدأت إرساليات التنصير تتوافد على بلاد المسلمين تحت مسميات مختلفة وشعارات ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .

أ ـ أسباب الاختيار : ترجع أهم أسباب اختيار هذا الموضوع إلى الآتي :

١ ـ بيان مراحل نشأة التبشير الثلاث : في القرن الأول الميلادي على يد " بولس " ، وفي القرن الرابع الميلادي على يد " قسطنطين الكبير " ، وفي القرن الثالث عشر الميلادي بعد فشل الحروب الصليبية .

٢ . إلقاء الضوء على شخصية " بولس " رسول المسيحية الحالية والمبشِّر بها بين الأمم ، تلك الشخصية التي غيَّرت معالم المسيحية الحقة عقيدة وشريعة ومصادر مقدسة ، ونقلتها من المحلية إلى العالمية ، وأصبح " بولس " المبشر (المنصر) الأول بالمسيحية بين الأمم ، بل يعتبر واضع أسس التبشير (التنصير) المسيحي الصليبي العالمي ، وعلى خطاه سار المبشرون (المنصرون) من بعده وحتى يومنا هذا .

٣ . إبراز أوجه الشبه الكبير بين " بولس الرسول " و " قسطنطين الكبير " ، من خلال قصة تحولهما إلى المسيحية ، وما قاما به من تحريف للمسيحية ، ونشرها في العالمين ، فبعد أن أعلن الإمبراطور الوثني " قسطنطين الكبير " دخوله في المسيحية ، رفع الاضطهاد عن المسيحيين ، وجعل المسيحية الدين الرسمي لوحدة إمبراطوريته ، وفرض قرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م بقوة السلطان ، تلك القرارات التي أقرت ألوهية المسيح " عليه السلام " وكانت النواة الأولى لعقيدة التثليث ، وكان لقسطنطين دور كبير في التبشير بها في ربوع إمبراطوريته المترامية الأطراف .

٤ . توضيح موقف الكنيسة الكاثوليكية الغربية من الإسلام ، ودورها الفعال في توجيه الحروب الصليبية والتحريض عليها من قبل بابواتها ، بل اشترك بعض رجالاتها في قيادتها ، وكان بطرس الراهب أو الناسك أو السايح المبشر الأول بالحروب الصليبية ، بل خرج على رأس الحملة الصليبية الشعبية الأولى . والتأكيد على أن للحروب الصليبية دوافع كثيرة ، يأتي الدافع الديني في مقدمتها ، ولكنه ليس الوحيد ، بل ربما كان ستارا للدوافع الأخرى الحقيقية : السياسية والاستعمارية والاقتصادية والاجتماعية .

٥ . شرح نتائج الحروب الصليبية ، ويأتي في مقدمتها التبشير (التنصير) باعتباره أخطر تلك النتائج ، حيث أفرزت الحروب الصليبية حركة تبشيرية (تنصيرية) منظمة ، لتؤدي الدور الذي عجزت عن القيام به الحروب العسكرية ، والذي وضع معالم هذه الحرب الجديدة هو ملك فرنسا " لويس التاسع " ، الذي نادى بتحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية فكرية ، وأشار على البابا " أنوسنت الرابع " بإنشاء جمعية التبشير الأولى سنة ١٢٥٣ م ، وقام " ريموند لول " بالتنفيذ العملي لخطة " لويس

التاسع " ، وهو أول من قام بالتبشير بالنصرانية بعد فشل الحروب الصليبية ٠ وإذا كان البابا " أوربان الثاني " هو أبو الحروب الصليبية ، فإن البابا " أنوسان الثاني " هو أبو التبشير ومنشئه في أوربا ، وهو الذي بارك " فرانسو دينز " ونصَّبه للتبشير بالمسيحية ونشرها بين المسلمين في الشرق سنة ١٢١٢ م ٠

ب ـ الدراسات السابقة :

توجد دراسات علمية سابقة بين ماجستير ودكتوراه ، تحدثت عن التبشير والتنصير ، متضمنة مباحثه العامة : الدوافع والأهداف ، الأساليب والوسائل ، المؤتمرات ، الآثار والنتائج ، من تلك الدراسات:

١ ـ التبشير في العالم الإسلامي أهدافه وآثاره (دكتوراه) : الدكتور محمد زين العابدين الطشو ، كلية أصول الدين بالقاهرة ـ قسم الدعوة والثقافة الإسلامية ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م ٠

٢ ـ فلسفة التبشير وأثره في تاريخ الأديان المعاصر (دكتوراه) : الدكتور رشدي الشحات عبد الحميد زوين ، كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ـ قسم الدعوة والثقافة الإسلامية ، ١٤١٣ هـ ـ

١٩٩٢ م ٠

٣ ـ مخططات التنصير لغزو العالم الإسلامي من خلال مؤتمر كلورادو ١٩٧٨ م (دكتوراه) : الدكتور عادل محمد عبد القادر علي ، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ـ قسم الأديان والمذاهب ، ٢٠٠٥ / ٢٠٠٦ م ٠

٤ ـ حقائق التبشير والتنصير في شرق وغرب القارة الإفريقية وأثر ذلك على الدعوة الإسلامية (دكتوراه) : الدكتور مشرح علي أحمد علي، كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة ـ قسم الدعوة والثقافة الإسلامية ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م ٠

٥ ـ جذور التنصير من العهد الجديد " عرض ونقد " (ماجستير) : الدكتور السيد عبد القادر المتولي ، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ـ قسم الأديان والمذاهب ، ٢٠٠٧ م ٠

الدراسات السابقة تتضمن الحديث عن المباحث العامة للتبشير أو للتنصير ، والحديث عن النشأة بمراحلها يأتي مبعثرا هنا وهناك وفي صفحات قليلة ، وبعض الرسائل تكتفي بالحديث عن النشأة في التمهيد ، والبعض الآخر خلا تماما من الحديث عن تلك النشأة ، وهذا البحث معني بجمع هذه الحبات الذهبية المتناثرة ونسجها في عقد نشأة التبشير بمراحله المختلفة . وتوجد رسائل علمية مطبوعة تمت الاستفادة منها في هذا البحث ، من تلك الرسائل : المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية للدكتور محمد رجب الشتيوي ، النصرانية من التوحيد إلى التثليث للدكتور محمد أحمد الحاج ، العلاقة بين الدين والدولة في اليهودية والنصرانية والإسلام للدكتور ماجد عبد السلام إبراهيم ، العمل التنصيري في العالم العربي للدكتور عبد الفتاح إسماعيل غراب .

ج . منهج البحث :

يقوم هذا البحث على المنهج التاريخي باسترداد الماضي تبعا لما تركه من آثار ، وذلك بجمع المعلومات ودراستها للوصول إلى حقائق ونتائج ، وربط ذلك بالعصر الحديث للاستفادة منه ، فإن وقائع وأحداث التاريخ لا تتكرر ، بينما حقائق العلم ونتائجه قابلة دائما لأن تتكرر وتتعدد .

كما يعتمد هذا البحث على المنهج الاستدلالي بجناحيه التحليل والاستنباط ، ويقوم هذا المنهج على السير بالعقل من قضايا يقينية ، حتى يستخلص منها قضايا أخرى ، أو الانتقال من المبادئ الكلية إلى الجزئية ، أو من القوانين العامة إلى الأحكام الفرعية ، دون الالتجاء إلى التجربة .

د . خطة البحث : اشتمل هذا البحث على : مقدمة ، وتمهيد ، ومطلبين ، وخاتمة :

المقدمة : وتشتمل على : أ . أسباب الاختيار . ب . الدراسات السابقة . ج . منهج البحث . د . خطة البحث .

التمهيد : قدم عداوة أهل الكتاب للإسلام وللمسلمين وسببها .

المطلب الأول : التبشير في مرحلته الأولى (بولس الرسول) والثانية (قسطنطين الكبير) :

تمهيد : مكانة بولس في المسيحية ٠

أولا : ترجمة بولس : أ . اسمه وجنسيته ٠ ب . بيئته وصفاته ٠

ثانيا : تحول بولس إلى المسيحية : أ . اضطهاد بولس للمسيحية ٠ ب . بولس رسول المسيحية ٠ ج . سبب هذا التحول المفاجئ ٠

ثالثا . بولس والحواريون ومصادر المسيحية : أ . بولس والحواريون ٠ ب . بولس ومصادر المسيحية ٠

رابعا : تبشير بولس بين الأمم : أ . خصوصية رسالة المسيح " عليه السلام " ٠ ب . عالمية رسالة بولس ٠ ج . رحلات بولس التبشيرية ٠

خامسا : قسطنطين الكبير والمسيحية : أ . تعريفٌ بقسطنطين ٠ ب . اضطهاد الرومان للمسيحية وتسامح قسطنطين معها ٠ ج . تحول قسطنطين إلى المسيحية وسببه ٠ د . ضياع المسيحية بين الخوف من السلطة والغرور بها ٠

سادسا : مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ودور قسطنطين فيه : أ . تعريفٌ بالمجامع النصرانية ٠ ب . أسباب انعقاد مجمع نيقية ٠ ج . انعقاد المجمع ودور قسطنطين فيه ٠ د . قرارات المجمع وآثارها ٠

المطلب الثاني : التبشير في مرحلته الثالثة (الحروب الصليبية) :

أولا : تعريفٌ بالحروب الصليبية : أ . أهمية الحروب الصليبية ومفهومها ٠ ب . زمن الحروب الصليبية وعدد حملاتها وموقف الكنيسة ورجالها منها ٠

ثانيا : دوافع الحروب الصليبية : أ . الدافع الديني ٠ ب . الدافع الاستعماري والسياسي ٠ ج . الدافع الاقتصادي والاجتماعي ٠

ثالثا : دور الأباطرة والبابوات والرهبان في إشعال الحروب الصليبية : أ . خطاب إمبراطور الدولة البيزنطية ودعوى اضطهاد المسلمين للمسيحيين والرد عليها ٠ ب . خطاب البابا أوربان الثاني والتحريض على بدء الحروب الصليبية لنجدة مسيحي الشرق ٠ ج . بطرس الناسك المبشِّر الأول بالحروب الصليبية ٠

رابعا : التبشير أخطر نتائج الحروب الصليبية : أ ـ الصليبية التبشيرية بدل الصليبية العسكرية . ب ـ أول من قام بالتبشير بعد الحروب الصليبية .

الخاتمة : وتشتمل على : أولا : أهم النتائج والتوصيات . ثانيا : فهرس الأعلام والبلدان والمصطلحات المترجم لها . ثالثا : فهرس المراجع .رابعا : فهرس الموضوعات .

وفي نهاية هذه المقدمة أسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، وأن يزيدنا علما ، وأن يحفظ علينا ديننا وأوطاننا ، وأن يرد كيد أعدائنا في نحورهم ، وأن يردنا إلى ديننا مردا جميلا ، وأن يحفظ بلاد المسلمين من كل مكروه وسوء ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

أ.د / محمد محمد محمد إبراهيم كركور
الأستاذ المساعد بقسم الأديان والمذاهب

التمهيد

قدم عداوة أهل الكتاب للإسلام وللمسلمين وسببها

يطيب لي قبل البدء في عرض مطالب هذا البحث ، أن أمهد له ببيان عداوة أهل الكتاب للإسلام وللمسلمين ، تلك العداوة التي كانت وما زالت الدافع الأكبر للتنصير بمحاولة إخراج المسلمين من دينهم أو على الأقل تشكيكهم فيه .

إن تلك العداوة وذلك الحقد قديم جدا ، ومحاولات أهل الكتاب المستمرة تكفير المسلمين يرجع تاريخها إلى تاريخ بداية الإسلام نفسه ، حيث بين القرآن الكريم أن أهل الكتاب لا يودون الخير للمسلمين ، قال تعالى : " ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم " ([1]) . بل إن أكثرهم يودون للمسلمين أمرا آخر ، ألا وهو تكفير المسلمين بردّهم عن دينهم ، ويبذلون كل المحاولات لتحقيق ذلك ، ودافعهم إلى هذا الأمر الحقد الدفين والحسد الشديد على الإسلام والمسلمين ، رغم أنهم يعلمون أن ذلك الدين هو الدين الحق ، قال تعالى : " ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق " ([2]) .

فبداية التبشير أو التنصير أو التكفير هي بداية ظهور الإسلام نفسه ، وإن لم يكن مصطلح التبشير موجودا في ذلك العصر ، لكن الدعوة إلى النصرانية كانت موجودة . والحروب الصليبية بداية التبشير (التنصير) بمعناه المستحدث ، أما التبشير (التنصير) بمعناه القديم ، وهو دعوة الناس للدخول في النصرانية ، فهو أمر قديم بدأه " بولس " قبل ظهور الإسلام نفسه ، غاية ما في الأمر أن التنصير الآن أكثر تنظيما مما كان عليه من قبل ، كما أن المنصرين أشد عداوة للمسلمين من غيرهم ، وأكثر حقدا وكراهية

([1]) سورة البقرة : الآية ١٠٥ .

([2]) سورة البقرة : الآية ١٠٩ .

للإسلام من غيره ([1]) . فمنذ أشرقت شمس الإسلام وأعداؤه يكيدون له ليلا ونهارا ، لكسر شوكته ، وإسقاط رايته ، والإسلام بقوته الذاتية وحفظ الله له ، لم تنكسر له شوكة ، ولم تُنكَّس له راية ، كما أنهم يمكرون بأتباع الإسلام كلما سنحت لهم فرصة لإخراجهم من النور إلى الظلمات .

ولقد ورث الغرب تلك العداوة ، والمتتبع لتاريخ العلاقات بين الغرب والإسلام يلاحظ حقدا مريرا يملأ صدور الغرب . تلك العداوة وذلك الحقد كانا السبب في الحرب التي يشنها الغرب على الإسلام قديما وحديثا ، ولقد " التقت كلمة خصوم الإسلام من الحقدة المستشرقين ، والطغاة المبشرين ، والغزاة المستعمرين على محاربة الإسلام حربا لا هوادة فيها ، وعلى مقاومته بكل ما يملكون من قوة ، فلماذا يحاربون الإسلام ولماذا يقاومونه ؟ لأنه الحصن الذي يقف أمام الصليبية الغربية ، والشيوعية الدولية ، والصهيونية العالمية ، وذلك بفضل عقائده الصحيحة ، وتعاليمه القويمة ، وتشريعاته السديدة ، ومبادئه الحكيمة ، وأخلاقه السامية ، وحيويته الكبرى ، ودعوته الشاملة ، وأخوَّته الجامعة "([2]) . إنهم يعادون الإسلام ويحقدون على المسلمين خوفا من هذا الدين الإسلامي ، فهو المنافس الوحيد الذي تخشاه الكنيسة ([3]) ، لأنه العقيدة

([1]) انظر : التبشير الخطر الداهم : الدكتور عبد الكريم حسن بلال ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م ، ص ٢٧ - ٢٩ .

([2]) قوى الشر المتحالفة الاستشراق . التبشير . الاستعمار و موقفها من الإسلام والمسلمين : محمد محمد الدهان ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع (المنصورة) ، ص ٢١ .

([3]) الكنيسة : كلمة سريانية معناها جمع أو اجتماع ، وتعني في العهد الجديد جماعة مدعوة لغرض ما ، وقيل إنها المكان الذي تؤدى فيه الطقوس الدينية ، ويستدلون على هذا المعنى بما ورد في إنجيل متى (١٦ : ١٨) . انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة : الدكتور مانع بن حماد الجهني ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٨ هـ ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع (الرياض) ، ج ٢ ص ١١٤٤ . دائرة المعارف الكتابية ، مجلس التحرير: القس صموئيل حبيب وقساوسة آخرون، المحرر وليم وهبة بباوي ، دار الثقافة (القاهرة) ، ج ٦ ص ٣٨٧ و ٣٨٨ .

الصحيحة ، التي إذا هيئ لها السبيل استطاعت أن تحل محل غيرها من العقائد الواهية ، هذا بجانب سهولة الإسلام وسرعة انتشاره ، وخلوه تماما من الأفكار المعمَّاة ، ووساطة السمسرة الكهنوتية وتعقيداتها ، فلا وسيط في الإسلام يقف بين المرء وربه ، والإنسان في الإسلام له صلة مباشرة بالخالق الأعظم يناديه ويناجيه ، يصلي له ويستغفره . كما " أدرك المستشرقون والمبشرون أن الخطر الكامن في الإسلام يهدد أوربا على الدوام ... وأن انتشار الإسلام بيسر وسهولة دون بذل الملايين كما يفعل المبشرون ، كان يقضُّ مضاجع الاستعمار منذ القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا ، ولقد كانوا وما زالوا يرون في الإسلام خطرا وعقبة في سبيل خططهم الاستعمارية " [١] .

الخوف من الإسلام أفصح عنه كثير من قادة التبشير (التنصير) وغيرهم من المستشرقين والغربيين ، وها هي بعض أقوالهم التي نستشفُّ منها مدى القلق الذي يحسُّ به الغرب قِبَل الإسلام :

إنهم يرون أن الإسلام يشكل عقبة في طريقهم وجدارا صعبا ، وهذا ما دعا " لورانس براون " [٢] إلى أن يقول : " الخطر الحقيقي كامن في الإسلام وفي قدرته على التوسع والإخضاع وفي حيويته ، إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الغربي " [٣] . ويقول أحد المبشِّرين (المنصِّرين) : " إن القوة الكامنة في الإسلام هي التي وقفت سدا منيعا

---

[١] جذور البلاء (القسم الأول) : عبد الله التل ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٨ هـ ــ ١٩٨٨ م ، المكتب الإسلامي (بيروت) ، ص ٢٠٠ و ٢٠١ و ٢٠٣ .

[٢] لورانس براون : لورانس بي براون أمريكي ، ولد في ٦ فبراير سنة ١٩٤٣ م ، درس في جامعة هارفارد ، وتخرج في سنة ١٩٦٨ م ، جراح عيون ، وتقاعد كضابط في القوات الجوية ، ولديه دكتوراه في اللاهوت ، وأعاد توجيه بؤرة تركيزه نحو الدراسات الدينية ، والتي أثمرت عن اعتناقه الإسلام في أبريل سنة ١٩٩٤ م ، وهو مؤلف كتابين في الدين المقارن " الوصية الأولى والنهائية " . انظر : موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة .

[٣] جذور البلاء : عبد الله التل ، ص ٢٠٣ .

في وجه انتشار النصرانية ، وهي التي أخضعت البلاد التي كانت خاضعة للنصرانية " ([١]) .

وتقول مجلة العالم الإسلامي الإنجليزية التبشيرية التي صدر أول عدد منها في فبراير سنة ١٩١١ م : " إن شيئا من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي ، ولهذا الخوف أسباب ، منها : إن الإسلام منذ أن ظهر في مكـــة ([٢])

لم يضعف عدديا بل هو دائما في ازدياد واتساع ٠٠٠ ولم يتفق قط أن شعبا دخل في الإسلام ثم عاد نصرانيا " ([٣]) .

ومن أقوالهم المفصحة عن خوفهم من الإسلام : " إن الدين الإسلامي هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في أفريقية ، والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا " ([٤]) .

([١]) بين الإسلام والغرب ضراوة أحقاد ومرارة حصاد : الدكتور علي محمد عبد الوهاب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٩٦ م ، دار ركابي للنشر ، ص ٤٩ .

([٢]) مكة : مكة المكرمة هي مدينة مقدسة لدى المسلمين، بها المسجد الحرام، والكعبة التي تُعدُّ قبلة المسلمين في صلاتهم. تقع غرب المملكة العربية السعودية، تبعد عن المدينة المنورة حوالي ٤٠٠ كيلومتر في الاتجاه الجنوبي الغربي، وسميت مكة لأنها تمكُّ الجبارين أي تذهب نخوتهم ، وسميت بكة لازدحام الناس بها ، ويقال مكة اسم المدينة وبكة اسم البيت ، وهي الحاطمة لأنها تحطم من استخف بها ، والقادس لأنها تقدس من الذنوب أي تطهر ، والباسَّة لأنها تبس أي تحطم الملحدين وقيل تخرجهم ، وسماها الله : أم القرى ، والبلد الأمين ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام . انظر : معجم البلدان: الحموي، الطبعة الأولى، ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م ، دار صادر (بيروت) ، ج ٥ ص ١٨١ و ١٨٢ . الموسوعة الحرة .

([٣]) التبشير العالمي ضد الإسلام : الدكتور عبد العظيم المطعني ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م ، مكتبة النور (القاهرة) ، ص ٨ .

([٤]) الغارة على العالم الإسلامي : شاتليه ، تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليبافي ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٨ هـ المطبعة السلفية (القاهرة) ، ص ١٥ .

ولقد صور ما تنطوي عليه نفوس الغربيين من الحقد على الإسلام والعصبية الحمقاء التي تسيطر عليهم ، أحد فلاسفة الإنجليز في عبارة واضحة ، حين قال : " إن قساوسة القرون الوسطى ، إما لجهلهم المطبق ، وإما لتعصبهم الأحمق ، قد رسموا الإسلام بألوان سوداء مظلمة ، وكانوا في الحقيقة قد تطبَّعوا على كره محمد ، ومقت دينه الحنيف ، لأن محمدا كان يظهر لهم أنه ضد المسيحية ، أمَّا أنا فقد درست الدين الإسلامي وشخصية محمد تلك الشخصية العظيمة اللامعة ، فوجدت محمدا بعيدا عما يُلحقونه به من التُّهم ، ويجب أن يسمى في الحقيقة ، مخلص الإنسانية ومنقذها " ([1]) ٠

([1]) قوى الشر المتحالفة : محمد محمد الدهان ، ص ٥٤ و ٥٥ ٠

* من شهادات المنصفين للإسلام ورسوله " صلى الله عليه وسلم " ، شهادة الفيلسوف المشهور " توماس كارليل " في كتابه " الأبطال " حين يقول عن الإسلام ، ردا على تهمة الكذب التي يوجهها المستشرقون والمنصرون للإسلام ونبي الإسلام" صلى الله عليه وسلم " : " من العار أن يصغي أي إنسان متمدن من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين إن دين الإسلام كذب ، وإن محمدا " صلى الله عليه وسلم " لم يكن على حق ، لقد آن الأوان أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة ، فالرسالة التي دعا إليها هذا النبي ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمان لملايين كثيرة من الناس ٠٠٠ وما الرسالة التي أداها إلا الصدق والحق ٠٠٠ وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع ، وذلك أمر الله ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء " ٠ جذور البلاء : عبد الله التل ، ص ٢٣١ و ٢٣٢ ٠

ويسجل " تولستوي " الكاتب الروسي الذائع الصيت رأيه في شخصية النبي محمد " صلى الله عليه وسلم " ، قائلا : " لا ريب أن هذا النبي من كبار الرجال المصلحين ، الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ، ويكفيه فخرا أنه هدى أمه برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح إلى السلم ، وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا " ٠ انظر : الإسلام والغرب (الماضي ـ الحاضر ـ المستقبل) : أبحاث وقائع المؤتمر العام التاسع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية : إشراف وتقديم الدكتور محمود حمدي زقزوق ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م ، ص ٤٢٧ ٠

هذا قليل من كثير مما امتلأت به قلوب الحقدة على الإسلام من المستشرقين والمنصرين وأذنابهم ، وهذا هو أسلوبهم في تناول الإسلام والحديث عن رسول الله " صلى الله عليه وسلم " . إن هذه الأقوال تدل على أمرين : الأول : إدراك أعداء الإسلام لعظمة الإسلام وقوته ، وكيف أنها تقف سدا منيعا أمام مطامعهم ، وحصنا قويا تتحطم على أسواره جميع مخططاتهم ، الثاني : حقدهم البالغ على الإسلام ، وافتراؤهم عليه * .

المطلب الأول

التبشير في مرحلته الأولى (بولس الرسول *) والثانية (قسطنطين الكبير)

تمهيد : مكانة بولس في المسيحية :

تختلف المسيحية التي بشَّر بها المسيح " عليه السلام " عن المسيحية التي نصَّر بها بولس الرسول اختلافا كبيرا ، فهناك مسيحيتان : الأولى أسسها المسيح " عليه السلام " ، والثانية أنشأها بولس ، ولا تمت إلى الأولى بصلة إلا الصلة الاسميَّة ، والمسيحية التي يدين بها المسيحيون منذ مجمع نيقية [1] سنة ٣٢٥ م إلى اليوم هي مسيحية بولس ، فهو رسولها ، ومعلمها الأول ، وهذا ما أكده كثير من المفكرين مسلمين ومسيحيين :

يبين صاحب كتاب " مفتريات المبشرين على الإسلام " المؤسس الحقيقي للمسيحية ، بقوله : " المسيحية التي نادى بها عيسى " عليه السلام " ذهبت ولم يعد لها

---

* سبق الحديث عن بولس ودوره في تطور العقيدة المسيحية في رسالتي للماجستير ، وما أذكره هنا من مادة علمية هو إضافات بمراجع جديدة ، وليس فيه أي نوع من التكرار أو التلخيص أو الاجتزاء ، والحديث عن بولس هنا ضروري باعتباره مرحلة من مراحل التبشير .

[1] نيقية : هي مدينة إغريقية قديمة تقع على الساحل الغربي للأناضول ، اشتهرت بأهميتها في تاريخ المسيحية لوقوع مجمع نيقية بها ، هذا المجمع الذي أسس لمعظم العقائد المسيحية ، وأهمها قانون الإيمان النيقاوي . انظر : الموسوعة الحرة .

وجود ، وليس في الأناجيل والرسائل إلا قدر ضئيل جدا من كلامه لا يقوم عليه دين ، وأبو المسيحية الحالية هو بولس " ([1]) ٠

ويتحدث مؤلف كتاب " حقيقة التبشير " عن المسيحية ودور بولس في تأسيس المسيحية الحاضرة ، ويقدم شهادة عالم أمريكي ، فيقول : نعم إنهما مسيحيتان ، لا مسيحية واحدة ، وبولس صاحب المسيحية التقليدية التي شاعت وزاعت ، وقامت أساسا على الصلب وسفك الدم ، وأدخلت على مسيحية المسيح الحقة الشيء المخالف والخطير ، لذلك اعتبر بعض العلماء أن بولس هو مؤسس المسيحية ، أو على الأقل هو شريك المسيح في تأسيسها ، ولقد وضع العالم الأمريكي " مايكل هارت " ([2]) في كتابه " الخالدون مائة " ، سيدنا محمدا " صلى الله عليه وسلم " على رأس قائمة أعظم الناس أثرا في التاريخ ، وجعل المسيح " عليه السلام " في المرتبة الثالثة ، وبولس في المرتبة السادسة ، ثم تحدث (هارت) عن المسيحية بقوله : " إن المسيحية لم يؤسسها شخص واحد ، وإنما أقامها اثنان : المسيح وبولس ، فالمسيح قد أرسى المبادئ الأخلاقية للمسيحية ، وكذلك نظرتها الروحية وما يتعلق بالسلوك الإنساني ، أما مبادئ اللاهوت فهي من صنع بولس ٠ فالمسيح هو صاحب الرسالة المسيحية ، ولكن بولس أضاف إليها عبادة المسيح ، كما أنه ألغى جانبا كبيرا من العهد الجديد ([3]) ، وكان المبشر الأول للمسيحية في القرن الأول ٠

([1]) مفتريات المبشرين على الإسلام : الدكتور عبد الجليل شلبي ، الطبعة الثالثة ، المختار الإسلامي (القاهرة) ، ص ١٠٣ ٠

([2]) مايكل هارت (28أبريل) : 1932 فيزيائي فلكي أمريكي، صاحب كتاب الخالدون مائة .يصف نفسه بأنه ذو توجهات سياسية فلسفية ، متزوج وله ولدان. هو الآن عضو الجمعية الفلكية وفروعها في علوم الكواكب. وأحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية. انظر : الموسوعة الحرة ٠

([3]) العهد الجديد : استقر رأي المسيحيين في أوائل القرن الخامس الميلادي على اعتماد سبعة وعشرين سفرا ، وأطلقوا عليها اسم " العهد الجديد " ، للمقابلة بينها وبين ما اعتمد من أسفار اليهود المقدسة التي أطلقوا عليها اسم " العهد القديم " ، ويقصد بكلمة " العهد " في هاتين التسميتين ما يرادف معنى الميثاق ، أي أن

إن عددا من الباحثين يرون أن مؤسس الديانة المسيحية هو بولس وليس المسيح ، وليس من المنطق في شيء أن يكون المسيح نفسه مسئولا عما أضافته الكنيسة أو رجالها إلى الديانة المسيحية ، فكثير مما أضافوه يتنافى مع تعاليم المسيح نفسه " . ثم يقول " هارت " عن أفكار بولس : " إن يسوع لم يكن فقط نبيا بشرا ، بل كان إلها حقا ، وأنه مات من أجل التكفير عن خطايا البشر ، وأنه إذا آمن الإنسان بيسوع المسيح فسوف تغفر خطاياه ، وبولس هو الذي أوضح فكرة الخطيئة الأولى ، لكن المسيح لم يكن يبشر بشيء من هذا الذي قاله بولس ، الذي يعتبر المسئول الأول عن تأليه المسيح " [1] ※ .

ويقدم الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأسبق المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود [2] شهادة أخرى لعالم مسيحي وأستاذ تاريخ الأديان وهو " شارل جينيبير " [1] ، فيقول الإمام :

كلتا المجموعتين تمثل ميثاقا أخذه الله على الناس ، فأولاهما تمثل ميثاقا قديما يرجع إلى عصر موسى " عليه السلام " ، والأخرى تمثل ميثاقا جديدا بدأ بظهور عيسى " عليه السلام " . انظر : الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام : الدكتور علي عبد الواحد وافي ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٣ م ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع (الكويت) ، ص ٨٥ .

[1] انظر : حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر : اللواء أحمد عبد الوهاب ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م ، مكتبة وهبة (القاهرة) ، ص ٤١ و ٤٢ .

※ لقد جاء المسيح " عليه السلام " بعقيدة ، وجاء بولس بعقائد أخرى مختلفات ، لكن عقائد بولس هي التي كُتب لها النصر ، وصارت أقواله هي الأكثر خطورة ، إنهما مسيحيتان ولا شك ، فأيهما أولى بالتقديم والتبشير ؟ مسيحية المسيح " عليه السلام " التي تدعو إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، والتمسك بالناموس والأنبياء وجوهرها " الحق والرحمة والإيمان " (مت ٢٣ : ٢٣) ، أم مسيحية بولس الصليبية التي لم تعرف شيئا سوى المسيح " عليه السلام " وإياه مصلوبا (كورنثوس ٢ : ٢) . انظر حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٦١ .

[2] عبد الحليم محمود (الإمام) 19781910 - شيخ الأزهر في الفترة بين عامي 1973 و١٩٧٨) : ولد في1328 هـ الموافق 12 مايو1910 م، بعزبة أبو أحمد قرية السلام مركز بلبيس بمحافظة الشرقية .نشأ في أسرة كريمة مشهورة بالصلاح والتقوى . حفظ القرآن الكريم ثم التحق بالأزهر سنة1923 م حصل على العالمية سنة 1351

كتب جينيير كتابا ضخما عن العصر الذي نشأ فيه المسيح " عليه السلام " ، وكتب كتابا آخر فيما يقرب من خمسمائة صفحة عن المسيح " عليه السلام " نفسه ، وكتب كتابا ثالثا عن تطور العقائد ، ورابعا في جزأين عن المسيحية القديمة ومسيحية العصور الوسطى والمسيحية الحديثة . وقد أثبت في كل هذه الكتب بما لا يدع مجالا للشك ، أن المسيحية الحالية ليست هي مسيحية المسيح " عليه السلام " ، بل لا تمت إلى مسيحية المسيح " عليه السلام " بصلة . وقد تتبع المسيحية الحالية : كيف نشأت منفصلة عن المسيح " عليه السلام " ، ثم كيف تطورت إلى أن أصبحت في الوضع الحالي ، وبين في وضوح لا لبس فيه أثر القديس بولس على المسيحية ، وأنها في أغلبها الأعم مدينة له . كما أثبت أن المسيح "عليه السلام" كان ـ على الخصوص ـ متجها إلى إذاعة ونشر بعض القواعد الأخلاقية ، التي كانت تحتاجها البيئة ، أما التثليث والألوهية والبنوة للإله ، تلك العقائد المعقدة التي لا يستسيغها عقل ، ولا يطمئن إليها فؤاد ، فهي بعيدة كل البعد عن رسالة المسيح " عليه السلام " [٢] .

1932هـ == م ثم سافر إلى فرنسا على نفقته الخاصة لاستكمال تعليمه العالي حيث حصل على الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية عن الحارث المحاسبي سنة1359 هـ1940 == م .بعد عودته عمل مدرسا لعلم النفس بكلية اللغة العربية بكليات الأزهر ، ثم عميدا لكلية أصول الدين سنة1384 هـ1964 == م وعضوا ثم أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية فنهض به وأعاد تنظيمه . عين وكيلا للأزهر سنة 1390 هـ1970 == م فوزيرا للأوقاف وشئون الأزهر. انظر : الموسوعة الحرة .

[١] شارل جنيبير : مسيحي ، نشأ من أب مسيحي وأم مسيحية ، وبيئة فرنسية دينية مسيحية صميمة ، بيئة كاثوليكية متعصبة ، ونال الدكتوراه ، وانتظم في هيئة التدريس الجامعي ، وتخصص في تاريخ الأديان عامة والمسيحية خاصة ، وارتقى إلى أن وصل إلى أستاذ ورئيس قسم تاريخ الأديان في جامعة باريس ، ومات بعد الحرب العالمية الثانية . انظر : المسيحية نشأتها وتطورها : شارل جينيير ، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ، المكتبة العصرية (صيدا ـ بيروت) ، ص ٥ و ٦ .

[٢] انظر : أوربا والإسلام : الدكتور عبد الحليم محمود ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف (القاهرة) ، ص ٣٥ ـ ٣٧ .

ومن أقوال بعض العلماء المسيحيين التي تؤكد أن بولس المؤسس الحقيقي للمسيحية :

يقول أحدهم : " وكان عيسى يهوديا ، وقد ظل كذلك أبدا ، ولكن شاول كوَّن المسيحية على حساب عيسى ، فشاؤول هو في الحقيقة مؤسس المسيحية " ([١]) . ويقول مؤلف كتاب " موجز تاريخ العالم " : " كان القديس بولس من أعظم من أنشأوا المذهب المسيحي ، وهو لم ير عيسى قط ولا سمعه يبشر الناس " ([٢]) . هذه شهادات بعض علماء المسيحية ، وكلها تثبت أن المسيحية المعاصرة ليس مؤسسها المسيح " عليه السلام " ، وإنما يرجع وزر بنائها وتأسيسها إلى بولس ، ولذلك فإن الاسم الصحيح لهذه الديانة يجب أن يكون البولسية بدل المسيحية .

أولا : ترجمة بولس :

من المهم تقديم ترجمة مختصرة عن هذه الشخصية التي قلبت مسيحية المسيح " عليه السلام " رأسا على عقب ، وأسست لمسيحية تؤمن بالتثليث ، وبكون المسيح " عليه السلام " ابن الله ، تجسد وصُلب كفارة عن خطايا البشر ، وأنه سيقوم من بين الأموات ويستعد لدينونة الخلق . وستشمل هذه الترجمة المختصرة: اسمه وجنسيته ، بيئته وصفاته .

أ . اسمه وجنسيته : كان اسمه أول الأمر شاول أو شاؤول ، ووالده كيساي ، من سبط بنيامين ، وكان كيساي فرّيسيا ([٣]) ، واشتهر بولس بهذا الاسم العبري " شاول " في

([١]) المسيحية : الدكتور أحمد شلبي ، الطبعة الحادية عشرة ، ٢٠٠٢ م ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة) ، ص ١٣٠ .

([٢]) موجز تاريخ العالم : ويلز ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة محمد مأمون نجا ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة) ، ص ١٧٨ .

([٣]) الفريسيون : من أكبر الفرق اليهودية ، وأكثرها عددا ، وأتباعها يمثلون جمهور اليهود في الماضي والحاضر على السواء . وهم القائلون بأقوال الأحبار ومذاهبهم ، وكانوا يعتقدون أنهم ممتازون بما لهم من دراية بأحكام الشريعة اليهودية وتفسير غوامضها ، ولذلك اتخذوا لأنفسهم اسم الفريسيين ، وهو في اللغة العبرية يدل على

سفر أعمال الرسل ([1]) من أوله إلى الأصحاح الثالث عشر ، الذي عُرف في إحدى فقراته ب " بولس " : " وأما شاول الذي هو بولس أيضا فامتلأ من الروح القدس وشخص إليه " ([2]) ، وشاع اسمه الجديد هذا بين الناطقين باليونانية ([3]) ومعناه " الصغير " ، وأكبر الظن أن اسم بولس كان هو اللفظ اليوناني المرادف لاسمه العبري شاول ([4]) .

القوم المفروزين أو المميزين ، إذ اعتبروا أنفسهم الفئة التي ينحصر فيها وحدها ما جاء في سفر اللاويين " وقد ميزتكم من الشعوب لتكونوا لي " (لا ٢٠ : ٢٦) . انظر : الفصل في الملل والأهواء والنحل : الإمام ابن حزم ، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده (القاهرة) ، ج ١ ص ١٠٣ . المجتمع اليهودي : زكي شنودة ، مكتبة الخانجي (القاهرة) ، ص ٢٩٨ .

([1]) أعمال الرسل : هذا هو عنوان السفر الخامس من أسفار العهد الجديد ، ويرجع هذا العنوان إلى القرن الثاني الميلادي ، وأبرز شخصية في القسم الأول من السفر هي شخصية بطرس ، أما الشخصية البارزة في القسم الثاني من السفر فهي شخصية بولس ، وكاتبه وكاتب البشارة الثالثة ـ حسب التقليد المسيحي ـ هو لوقا ، وقد كُتبا باللغة اليونانية ، ويعتقد الكثيرون أن سفر الأعمال كتب حوالي سنة ٦٣ م ، وهذا السفر هو المرجع القوي لتاريخ الكنيسة المسيحية في نشأتها . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، نخبة من الأساتذة ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين ، هيئة التحرير بطرس عبد الملك وآخرون، الطبعة الخامسة عشر ، ٢٠١١ م ، مجمع الكنائس في الشرق الأدنى (بيروت) ، ص ٨٧ ـ ٨٩ .

([2]) الكتاب المقدس : كتب العهد القديم والعهد الجديد : طبعة العيد المئوي ، ١٨٨٣ ـ ١٩٨٣ م ، دار الكتاب المقدس بمصر ، سفر أعمال الرسل ١٣ : ٩ .

([3]) اليونان : جمهورية اليُونان هي دولة تقع في جنوب شرق أوروبا، على الرأس الجنوبي لشبه الجزيرة البلقانية. تملك اليُونان إرثا حضارياً عريقاً، يعود تاريخه إلى آلاف السنين. يعتبر المؤرخون الغربيون أن بلاد اليُونان هي مهد الحضارة الغربية . اليونان هي البلاد الشهيرة في أوربا الجنوبية الشرقية التي انتشرت ثقافتها في كل أنحاء آسيا الغربية بعد فتوحات اسكندر ، ويشير سفر دانيال (٨ : ٢١ ، ١١ : ٢) إلى أن اسكندر المقدوني سافر إلى بلاد اليونان وأسس كنائس هناك . انظر : أطلس الكتاب المقدس : حرره هـ . هـ . رولي ، ١٩٨٣ م ، دار النشر المعمدانية (بيروت) ، ص ٢٦ . الموسوعة الحرة .

([4]) انظر : محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين محمد الطشو ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م ، ص ٤٣ .

وأما عن جنسية بولس فله في سفر أعمال الرسل أكثر من جنسية ، فتارة يدَّعي أنه يهودي طرسوسي ([١]) ، يقول بولس : " أنا رجل يهودي طرسوسي من أهل مدينة غير دنيّة " ([٢]) ، فاليهودية في نظر كثير من المؤرخين جنسية لمن ينتمي إليها دينيا ، ودين لمن ينتمي إليها جنسيا .

وتارة يصرخ في المجمع قائلا إنه فريسي ابن فريسي ، ويذكر سفر الأعمال أنه أعلن هذا في واقعة كانت بين الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة ، والفريسيين الذين يؤمنون بذلك : " ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون والآخر فريسيون ، صرخ في المجمع أيها الرجال الإخوة أنا فريسي ابن فريسي ، على رجاء قيامة الأموات أنا أحاكم " ([٣]) . وأخرى يقول إنه رجل روماني ([٤]) : " فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المائة الواقف أيجوز لكم أن تجلدوا إنسانا رومانيا غير مقضي عليه " ([٥]) ، خاصة وأنه ولد بولاية كيليكية ([٦]) من أعمال الإمبراطورية الرومانية ، وقضى بها زمن طفولته ، وتحدث

([١]) طرسوس : عاصمة كيليكيا في شرقي آسيا الصغرى ، ولما أنشأ الرومان إقليم كيليكيا سنة ٦٤ ق . م جعلوا طرسوس مقر الحاكم ، وجعلها أوغسطس مدينة رومانية ، وكان فيها مدرسة عُدَّت بعد مدرسة اثينا ومدرسة الإسكندرية في الشهرة ، وتَعيَّن للعائلة الإمبراطورية معلمون من طرسوس ، وكانت مسقط رأس بولس الرسول (أع ٢١ : ٣٩ ، ٢٢ : ٣) ، ولم تزل تُدعى طرسوس إلى اليوم ، وهي مدينة تركية . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٥٧٥ و ٥٧٦ .

([٢]) أعمال الرسل ٢١ : ٣٩ .

([٣]) أعمال الرسل ٢٣ : ٦ .

([٤]) الرومان : نسبة إلى مدينة رومية التي تأسست عام ٧٥٣ ق . م . وفي سنة ٦٣ ق . م خضعت اليهودية لرومية ولكن سُمح لها بأن تُعيّن ولاة من بنيها . وفي سنة ٣١ ق . م . تولى الحكم الإمبراطور أوكتافيوس وأطلق على نفسه لقب أوغسطس ، وهكذا بدأت الإمبراطورية الرومانية . كان آخر إمبراطور يملك على كل الإمبراطورية ثيودوسيوس ٣٧٩ ـ ٣٩٥ م . انظر : قاموس الكتاب المقدس ص ٤١٨ و ٤١٩ .

([٥]) أعمال الرسل ٢٢ : ٢٥ .

([٦]) كيليكية : ولاية في الزاوية الجنوبية لآسيا الصغرى ، وكانت تُقسَّم قديما إلى قسمين القسم الغربي وهو جبلي ، والقسم الشرقي ويدعى سهل كيليكية ، وعاصمة القسم الأخير كانت طرسوس ، مكان ولادة بولس

لغة اليونان وكَتبها منذ نشأته الأولى ، وحمل لقب " مواطن روماني " وراثة عن أبيه ٠ هذه الرعوية الرومانية منصب شرف وتقدير ولقب عظيم ، يحصل عليه الشخص إما بدفع مال للحاكم الروماني ، أو بتقديم عمل جليل للدولة ، وربما حصل بولس على هذا اللقب لعمل قدَّمه والده في خدمة الدولة ، فنال ابنه بسببه هذا الشرف (١) ٠ قال بولس إنه روماني بالرغم من معرفة رجال الحكومة له ـ وقتئذ ـ أنه مصري : " أفلست أنت المصري الذي صنع قبل هذه الأيام فتنة " (٢) ٠ هذا إن دل على شيء ، فإنما يدل على أن تلك الشخصية كانت متلونة ، تلبس لكل حال جنسيتها التي تفيدها في تلك الحال ٠

ب ـ بيئته وصفاته : وُلد بولس في طرسوس التابعة لإقليم كيليكية : " أنا رجل يهودي ولدت في طرسوس كيليكية " (٣) ، تلك المدينة التي كوَّنت فكره العقدي والثقافي ٠ فبولس تلقى ثقافته الأولية في موطن رأسه طرسوس مركز الفلسفة الرواقية (٤) ، والتي ظهر تأثيرها في كثير من تعبيراته عن المبادئ المسيحية ، وبعد أن تشبع بهذا الجو المملوء بالثقافة العقلية أُرسل إلى أورشليم (٥) عاصمة اليهودية في هذه الفترة ، ليُبحر في

الرسول ، وكان كثير من شعبها يهودا ، وكانت جزءا من مملكة سوريا ، وقد هاجم يهود كيليكية استفانوس (أع ٦ : ٩) ، ووصلها الإنجيل في وقت مبكر جدا (أع ١٥ : ٢٣) ، وقد غُرس فيها وانتشر بيد بولس الرسول (أع ٩ : ٣٠ ، غل ١ : ٢١) ٠ انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٨٠٣ ٠

(١) انظر : محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٤٣ ٠ المسيحية نشأتها وتطورها : شارل جينيبير ، ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ، ص ٩٠ ٠ بولس والمسيحية : محمد أبو الغيط الفرت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م ، دار الطباعة المحمدية (القاهرة) ، ص ١٩ و ٢٠ ٠

(٢) أعمال الرسل ٢١ : ٣٨ ٠

(٣) أعمال الرسل ٢٢ : ٣ ٠

(٤) الفلسفة الرواقية : عقيدة خفية يؤمن أصحابها بأن الإله الذي يعبدونه قد مات من أجلهم ، ثم قام من قبره ٠ انظر : المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل : عبد الكريم الخطيب ، ص ٣٠٨ و ٣٠٩ ٠

(٥) أورشليم : كانت عاصمة يهوذا وفلسطين لزمن طويل ، وهي مدينة مقدسة عند اليهود والنصارى والمسلمين ، ومن أسمائها الأخرى : يبوس (قض ١٩ : ١٠ و ١١) ، إريئيل (إش ٢٩ : ١) ، مدينة

الناموس ، وكان لهذا التعليم أثره في عقلية بولس ، وبالتالي نالت المسيحية نصيبا وافرا من ثقافته ([١]) .

ولبولس صفات تميَّز بها وكانت من أسباب نجاحه في مهمته ، وقد تناول بيان سماته وسجاياه كثير من المحققين : ومن هذه السمات أنه كانت تجتمع فيه الصفة الفاضلة مع ضدها ، فقد كان شجاعا لكنه مندفع ، حاسما في أحكامه لكنه متعسف ، إذا غضب كان عنيفا إلا أنه كان قادرا على أن يُظهر للناس الحب الرقيق والرحمة الحانية . وكان ذا تفكير مصبوغ بعزيمة لا تُقهر ، فهي عزيمة تفرض رسالة صاحبها وآراءه فرضا ، وهو ذو منطق مدرب على الجدل والمناقشة ، لديه قدرة خارقة على تطويع الآراء والمذاهب وتحويرها لخدمة أغراضه .

وكان بولس يحرص على التعاظم والتفاخر وحب الذات وإبراز أعمال يجب عليها المدح والثناء ، وهذا ما نطقت به رسائله في أكثر من موضع ، منها : في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس ([٢]) لا يعتبر نفسه رسولا من جملة الرسل ، بل من المتميزين بينهم والفائقين : " لأني أحسب أني لم أنقص شيئا عن فائقي الرسل " ([٣]) . بل يتهم الرسل الآخرين

العدل (إش ١ : ٢٦) ، القدس (إش ٤٨ : ٢) ، وتسمى في العربية بيت المقدس والقدس الشريف ، أما الاسم الغالب فهو القدس . انظر: قاموس الكتاب المقدس ، ص ١٢٩ .

([١]) محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٤٣ بتصرف .

([٢]) كورنثوس : عاصمة مقاطعة اخائية في بلاد اليونان ، وكانت من المدن المشهورة ، وكانت مركزا للغنى والترفُّه والعلم . بشَّر بولس في كورنثوس (أع ص ١٨) وذلك حوالي سنة ٥٣ م ، وزارها ثانية سنة ٥٤ ـ ٥٧ م ، وقد كشف التنقيب في كورنثوس عن المكان الذي كان يجلس فيه غاليون الحاكم الروماني للقضاء في زمن بولس الرسول (أع ١٨ : ١٢) . كتب بولس رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس في أواخر الثلاث سنين التي سكن فيها في أفسس سنة ٥٧ م (١كو ١٦ : ٨ و ٩ و ١٩) ، أما رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس فقد كتبها من مقدونية سنة ٥٧ م (٢كو ٧ : ٥ ، ٨ : ١ ، ٩ : ٢) . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٧٩٦ و ٧٩٧ .

([٣]) كورنثوس الثانية ١١ : ٥ .

بالكذب والمكر : " هؤلاء هم رسلٌ كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح ، ولا عجب لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور " (١) .

وفي نفس الرسالة يطلب من أتباعه أن يمدحوه ، لعمله وجهاده في سبيل إنجاح دعوته ، التي حوَّل فيها مسيحية يسوع المسيح الناصري إلى مسيحية بولس الرسول الطرسوسي ، فهو يعدد ما لاقاه في سبيل الدعوة ، ثم يقول : " لأنه كان ينبغي أن أُمدح منكم إذ لم أنقص شيئا عن فائقي الرسل " (٢) . ويبين أنه يشترك مع الرسل في أشياء ، ويتفوق عليهم بما قدَّمه من إيذاء وتضحيات ، فيقول : " أهم عبرانيون فأنا أيضا ، أهم إسرائيليون فأنا أيضا ، أم نسل إبراهيم فأنا أيضا ، أهم خدام المسيح ... فأنا أيضا ، في الألقاب أكثر ، في الضربات أوفر ، في السجون أكثر ... ثلاث مرات ضُربت بالعصى ، مرة رُجمت ، ثلاث مرات انكسرت بي السفينة ... بأخطار في البحر ، بأخطار من إخوة كذبة ، في تعب وكد ... في جوع وعطش ، في أصوام مرارا كثيرة " (٣) . هذا التفاخر يتنافى مع تعاليم المسيح " عليه السلام " ، الذي أوصى تلاميذه ألا يتفاخروا بحسب أعمالهم حتى لا يهووا إلى درك النفاق ، ويحق عليهم الوعيد الذي توعد به العتاة من اليهود ، فتحبط أعمالهم * ، بل مهما صنعوا من الحسنات ، يجب أن يكون التواضع سمتهم الغالبة : " فمن يرفع نفسه يتَّضع ، ومن يضع نفسه يرتفع " (٤) ، " إن المستعلي على الناس هو رجس قدَّام الله " (٥) ، فما بالنا بالرسول بولس قد

---

(١) كورنثوس الثانية ١١ : ١٣ و ١٤ .

(٢) كورنثوس الثانية ١٢ : ١١ .

(٣) كورنثوس الثانية ١١ : ٢٢ ـ ٢٧ .

* انظر : إنجيل متى : الأصحاح السادس .

(٤) متى ٢٣ : ١٢ .

(٥) لوقا ١٦ : ١٥ .

عكس القضية وسعى إلى الافتخار والإعجاب بنفسه ، وأحب المدح من الناس والتفاضل على الآخرين ، والامتنان على الله وعلى الناس (١) .

ومن صفات بولس أنه جعل نفسه قديسا ، لا يدين العالم فقط بل الملائكة كذلك : " ألستم تعلمون أن القديسين سيدينون العالم ... ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة فبالأولى أمور هذه الحياة " (٢) . إن القديسين الذين تكلم عنهم بولس ما بلغوا تلك المرتبة إلا بعد حفظهم لحدود الله ، أما بولس فقد أعطى لنفسه الحق في كل شيء : " كل الأشياء تحل لي " (٣) . وكان يرى أن كبح شهوات الجسد إنما هو أمر جدٌّ عسير ، عجز هو شخصيا عن تحقيقه ، فبقي أسيرا في قبضتها ، يصرخ طالبا من ينقذه منها (٤) : " لست أعرف ما أنا أفعله إذ لست أفعل ما أريده بل ما أبغضه فإياه أفعل ... لأني لست أفعل الصالح الذي أريده بل الشر الذي لست أريده ... ولكني أرى ناموسا آخر في أعضائي يحارب ناموس ذهني ويسبيني إلى ناموس الخطية الكائن في أعضائي ... من ينقذني من جسد هذا الموت " (٥).

ويتحدث " شارل جينيبير " عن ملكات بولس التي ساعدته في مهمته التبشيرية ، قائلا : حين ننظر إلى ملكات بولس العامة في التبشير ، نجد أنه كان في وضع يلائم تحقيق عمله التبشيري كل الملائمة ، فقد جمع بين ميزات ثلاث جعلت منه أقدر الناس على القيام بهذا الدور : كان يونانيا ، يهوديا ، رومانيا : وعندما نقول إنه كان يونانيا ، فإنما نقصد بذلك أنه أُشرب في بيئة طرسوس شيئا من الروح الإغريقية (٦) ، ولُقِّن اللغة

---

(١) انظر : بولس والمسيحية : محمد أبو الغيط ، ص ٢٠ ـ ٢٥ .

(٢) كورنثوس الأولى ٦ : ٢ و ٣ .

(٣) كورنثوس الأولى ٦ : ١٢ .

(٤) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٣٨ و ٣٩ بتصرف .

(٥) رومية ٧ : ١٥ و ١٩ و ٢٣ و ٢٤ .

(٦) الإغريق : ويُعرفون أيضا باليونانيين ، شهدت بلادهم اليونان ولادة حضارة عريقة منذ ما يقرب من ٢٥٠٠ سنة مضت ، سَمَّى الإغريق أنفسهم بالهيلينيين ، وكانوا يعتقدون أنهم مجموعة مختلفة عن غيرها من

اليونانية ، فأصبح قادرا على التعبير عن الرأي ، والدفاع عنه . والروح اليونانية ليست العنصر الأول في شخصية بولس ، فقد كان يهوديا قبل أن يكون يونانيا ، وتدرَّج في الثقافة اليهودية والتبحر في النصوص المقدسة ، حتى بلغ منتهاها . وأضاف بولس إلى يونانيته ويهوديته ميزة ثالثة هي تمتعه بالجنسية الرومانية ، التي كانت تحميه من الانزلاق إلى تعصب يهود فلسطين القومي الذي اتُّصف بضيق الأفق وكراهية الأجنبي ، وكانت تدعو إلى العالمية في التفكير والعمل ([1]) .

ويذكر مؤلف " عقائد النصارى الموحدين " الصفات التي أهَّلت بولس للقيام بدوره ، بالقول : كان بولس مؤهلا تماما للدور الذي نيط به : فهو إسرائيلي قُح ، من دم عبراني خالص ، من قبيلة بنيامين ، يحمل اسم أبرز رجل خرج من تلك القبيلة وهو الملك " شاول " ، وكان أبوه من الفريسيين ، أشد الفرق اليهودية تزمتا في رعاية الناموس ، والمنافحة عن ديانة موسى " عليه السلام " وتقاليد الآباء . يضاف إلى ذلك أنه كان أيضا يتمتع بالرعوية الرومانية ، التي أكسبته حرية الحركة والتنقل بين عشيرته وبني قومه من اليهود ، أو بين الرومان والوثنيين . وهكذا التقت في بولس عناصر الحضارة العالمية الثلاثة آنذاك : مدنية الرومان ، وثقافة الإغريق ، وديانة العبرانيين . فبولس لم يوجه إلى مهمته عفوا ، بل عن اختيار دقيق لرجل يحيط بفكر الوثنيين وعقائدهم ، مع خلفية من الولاء الصميم لديانة الآباء وتقاليدهم ، والاعتداد بالعنصر العبراني ([2]) .

الشعوب الأخرى ، التي كانوا يطلقون عليها اسم البرابرة (الهمج) ، ووصلت الحضارة الإغريقية ذروتها في أثينا في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد ، وعُرفت هذه الفترة بالعصر الذهبي . انظر : الموسوعة العربية العالمية : الطبعة الثانية ، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع (الرياض) ، ج ٢ص ٣١٧ .

([1]) انظر : المسيحية نشأتها وتطورها : شارل جينيبير ، ص ٩٠ و ١٠٦ - ١٠٨ و ١١٠ .

([2]) انظر : عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية : حسني يوسف الأطير ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م ، دار الأنصار (القاهرة) ، ص ١٩ - ٢١ .

ومن صفات بولس المبشِّر أنه كان يحاول كسب الجميع ، حيث اختطَّ لنفسه قاعدةً سار عليها في عمله التبشيري ، وهي أن الغاية تبرر الوسيلة ، وكانت غايته كسب أكبر عدد من البشر لما قام يدعو إليه ، ولم يتورع ـ في سبيل تحقيق غايته ـ عن اللجوء إلى مختلف الوسائل لاقتناص الناس ، واعترف هو نفسه بذلك ، إذ يقول : " إني إذ كنت حرا من الجميع استعبدت نفسي للجميع لأربح الكثيرين ، فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس ... لأربح الذين بلا ناموس ، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء ، صرت للكل كل شيء لأخلِّص على كل حال قوما ، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل [1] لأكون شريكا فيه " [2] ، ويقول : " كونوا بلا عثرة لليهود ولليونانيين ولكنيسة الله ، كما أنا أيضا أرضي الجميع في كل شيء غير طالب ما يوافق نفسي بل الكثيرين لكي يخلصوا " [3] ، ولذلك لم يكن هناك حرج من استخدام الكذب وغيره لزيادة الأتباع ، يقول بولس : " إن كان صدق الله قد ازداد بكذبي لمجده فلماذا أُدان أنا بعد كخاطئ " [4] [5] . تلك كانت الخطوط العريضة لترجمة بولس ، هذه الشخصية التي يُنسب إليها الوزر في تحريف الديانة التي جاء بها عيسى " عليه السلام " عقيدة وشريعة وتاريخا ، وحُق له أن تنسب إليه أكثر مما تنسب للمسيح " عليه السلام " .

---

[1] الإنجيل : كلمة يونانية معناها " الحلوان " ، وهو ما تعطيه من أتاك ببشرى ، ثم أريد بالبشرى الكلمة عينها ، وما لبثت هذه الكلمة أن استُعملت بمعنى الكتاب الذي يتضمن هذه البشرى . انظر : المسيحية : الدكتور أحمد شلبي ، الطبعة العاشرة ، ٢٠٠٠ م ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة) ، ص ٢١٥ . أديان ومذاهب معاصرة : الدكتور عبد العزيز تمام يوسف ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م ، مكتبة المنار الإسلامية (الكويت) ، ص ٢٢ .

[2] كورنثوس الأولى ٩ : ١٩ ـ ٢٣ .

[3] كورنثوس الأولى ١٠ : ٣٢ و ٣٣ .

[4] رومية ٣ : ٧ .

[5] انظر : حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٣٧ و ٣٨ .

ثانيا : تحول بولس إلى المسيحية :

لتحول بولس من مضطهِد للمسيحية إلى رسول لها ومبشِّرٍ بها ، قصة عجيبة . يرويها سفر أعمال الرسل . تحتاج إلى وقفة لدراستها ، والتعرف على سبب هذا التحول المفاجئ .

أ . اضطهاد بولس للمسيحية :

اشتُهر بولس . في صدر حياته . بتعصبه ليهوديته ، وعداوته للمسيحية وأتباعها ، تلك العداوة التي قادته إلى إيذاء معتنقيها وتعذيبهم وسجنهم ، بل وقتل بعضهم ، وهذا ما أفاض سفر أعمال الرسل في الحديث عنه :

يحكي الأصحاح السابع من سفر الأعمال قصة الهجوم على " استفانوس " ([1]) ، ورجمه خارج المدينة ، بحضور شاول ورضاه بقتله : " وهجموا عليه بنفس واحدة ، وأخرجوه خارج المدينة ورجموه ، والشهود خلعوا ثيابهم عند رجلي شاب يقال له شاول ، فكانوا يرجمون استفانوس وهو يدعو ويقول أيها الرب يسوع اقبل روحي " ([2]) . وفي صدر الأصحاح الثامن : " وحدث في ذلك اليوم اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم ، فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ([3]) ما عدا الرسل ، وحمل رجال

([1]) استفانوس : اسم يوناني معناه " تاج " أو " إكليل من الزهور " ، وهو اسم أول شهداء المسيحية ، ويصف الكتاب المقدس استفانوس بأنه رجل ممتلئ من الإيمان بالروح القدس (أع ٦ : ٥) ، وأنه كان يصنع قوات وعجائب (أع ٦ : ٨) ، وكان ينادي بالرسالة بحكمة (أع ٦ : ١) ، وبعد موت استفانوس لاقى المسيحيون من العذاب أشده ، فتشتتوا من أورشليم إلى اليهودية والسامرة (أع ٨ : ١) . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٦٣ .

([2]) أعمال الرسل ٧ : ٥٧ . ٥٩ .

([3]) السامرة : مدينة السامرة كانت عاصمة الإمبراطورية الفارسية (عز ٤ : ١٧) ، وقامت العداوة بين اليهود والسامريين (يو ٤ : ١٩ ، لو ٩ : ٥٢ و ٥٣) ، وحينما أرسل يسوع الاثني عشر تلميذا أمرهم بألا يذهبوا إلى السامرة (مت ١٠ : ٥) ، أما عند ذهابه هو بنفسه ، آمن كثيرون من السامريين (يو ٤ : ٣٩) ، وتأسست كنائس في المقاطعة باكرا في تاريخ المسيحية (أع ٨ : ٢٥) . انظر : أطلس الكتاب المقدس ، ص ١٧ .

أتقياء استفانوس وعملوا عليه قباحة عظيمة ، وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجرُّ رجالا ونساء ويُسلمهم إلى السجن " ([١]) . وفي أول الأصحاح التاسع كذلك : " أما شاول فكان لم يزل ينفث تهدُّدا وقتلا على تلاميذ الرب ، فتقدم إلى رئيس الكهنة ([٢]) وطلب منه رسائل إلى دمشق إلى الجماعات ، حتى إذا وجد أناسا من الطريق رجالا ونساء يسوقهم موثقين إلى أورشليم "([٣]) .

ويروي الأصحاح الثاني والعشرون عن بولس قوله : " واضطهدت هذا الطريق حتى الموت مقيّدا ومسَلِما إلى السجون رجالا ونساء " ([٤]) . ويقول في رسالته إلى أهل غلاطية : " فإنكم سمعتم بسيرتي قبلا في الديانة اليهودية أني كنت أضطهد كنيسة الله بإفراط وأتلفها " ([٥]) . فبولس بدأ حياته بالكراهية لهؤلاء الذين اتَّبعوا رجل الجليل ، وأوضح لهم كراهيته هذه بالقول والعمل في سفر الأعمال ([٦]) .

([١]) أعمال الرسل ٨ : ١ ـ ٣ .

([٢]) الكاهن ـ الكهنوت : الكاهن هو خادم الدين أو الشخص المخصص لتأدية الخدمات الكهنوتية ، التي تشمل الذبائح والقضاء على الدعاوى وتفسير الناموس للشعب ، وكان كل الأفراد قبل النظام الموسوي يقدمون الذبائح (تك ٤ : ٤) ، ثم صار رؤساء البيوت والقبائل يمارسون الكهنوت (تك ٨ : ٢٠ ، ١٢ : ٨) ، ولكن لما سُنَّ النظام الجديد عين موسى " عليه السلام " رتبة الكهنوت في ذرية هارون (خر ٢٨ ، ٢ أخبار ٢٦ : ١٨) ، وكان كل ذكر من ذرية هارون كاهنا بشرط ألا يكون فيه أي عيب أو تشويه جسدي ، وكانتُ تفرض على الكاهن في حياته ومعيشته قوانين لم تكن تفرض على غيره من اللاويين أو عوام الشعب . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٧٩١ . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : الدكتور مانع بن حماد الجهني ، ج ٢ ص ١١٣٦ .

([٣]) أعمال الرسل ٩ : ١ و ٢ .

([٤]) أعمال الرسل ٢٢ : ٤ و ٥ .

([٥]) غلاطية ١ : ١٣ .

([٦]) انظر : المسيحية نشأتها وتطورها : شارل جينيبير ، ص ٢٠٣ . محاضرات في النصرانية : الإمام محمد أبو زهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٣٨١ هـ ـ ١٩٦١ م ، دار الفكر العربي (القاهرة) ، ص ٦٦ .

ب . بولس رسول المسيحية :

يتحدث سفر أعمال الرسل عن تحول بولس . الذي آذى المسيحية وأتباعها أشد الإيذاء . إلى المسيحية فجأة ، من خلال رؤياه النهارية التي جعلته رسولا للمسيحية ، ثم كانت رؤياه الليلية التي قادته للتبشير بين الأمم ، (أعمال الرسل ١٦ : ٩ و ١٠) ، ونقل التبشير بالمسيحية خارج بني إسرائيل ٠

يقول سفر أعمال الرسل في الأصحاح التاسع عن رؤيا بولس النهارية التي ظهر له المسيح " عليه السلام " في عمود من نور ، فهداه الصراط المستقيم ، وكلفه تبليغ رسالته إلى الأمم : " وفي ذهابه حدث أنه اقترب إلى دمشق ، فبغتةً أبرق حوله نور من السماء ، فسقط على الأرض وسمع صوتا قائلا له شاول شاول لماذا تضطهدني ، فقال من أنت ياسيد ، فقال الرب أنا يسوع الذي أنت تضطهده ٠٠٠ فقال وهو مرتعد ومتحير يارب ماذا تريد أن أفعل ، فقال له الرب قم وادخل المدينة فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل ، وأما الرجال المسافرون معه فوقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحدا ٠٠٠ وللوقت جعل يكرز ([١]) في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله " ([٢]) ٠ وخُتم هذا النص بجملة ذات بال غيَّرت وجه التاريخ ، هي " وللوقت جعل يكرز في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله " ، ولم تكن هذه الكلمة قد عُرفت من قبل ، فأصبحت نقطة التحول في الدراسات المسيحية ٠

([١]) الكرازة : الكرازة في المسيحية هي التبليغ بأسلوب وعظي ، وهي تدور حول معنيين : الدعوة إلى الدين (مت ٣ : ٤ و ٧ ، مر ١٦ : ١٥) ، والمناداة بالخير المفرح (مت ٤ : ٣ ، أع ١٠ : ٤٢) ٠ وقد وردت كلمة الكرازة بمشتقاتها في مواضع متعددة من العهد الجديد ، وفي ثلاثة من الأناجيل الأربعة ، وهي : متى ومرقس ولوقا (مت ٤ : ٢٣ ، مر ١٦ : ١٥ ـ ١٩ و ٢٠ ، لو ٨ : ١) ٠ انظر : فلسفة التبشير وأثره في تاريخ الأديان المعاصر (دكتوراه) : الدكتور رشدي الشحات عبد الحميد زوين ، إشراف الدكتور محمود محمد عمارة ، كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية ـ قسم الدعوة والثقافة الإسلامية ، ١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م ، ص ٥٠ ـ ٥٢ ٠

([٢]) أعمال الرسل ٩ : ٣ ـ ٧ و ٢٠ ٠

وفي الأصحاح الثاني والعشرين : " فحدث لي وأنا ذاهب ومتقرِّب إلى دمشق أنه نحو النهار بغتة أبرق حولي من السماء نور عظيم ، فسقطتُ على الأرض وسمعت صوتا قائلا لي شاول شاول لماذا تضطهدني ، فأجبت من أنت ياسيد ، فقال لي أنا يسوع الناصري الذي أنت تضطهده ، والذين كانوا معي نظروا النور وارتعبوا ولكنهم لم يسمعوا الصوت الذي كلمني ، فقلت ماذا أفعل يارب ، فقال لي الرب قم واذهب إلى دمشق وهناك يقال لك عن جميع ما ترتَّب لك أن تفعل " ([1]) . وفي الأصحاح السادس والعشرين : " ولما كنت ذاهبا في ذلك إلى دمشق ... رأيت في نصف النهار في الطريق أيها الملك نورا من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أبرق حولي وحول الذاهبين معي ، فلما سقطنا جميعا على الأرض سمعت صوتا يكلمني ويقول باللغة العبرانية ([2]) شاول شاول لماذا تضطهدني ... ولكن قم وقف على رجليك لأني لهذا ظهرت لك لأنتخبك خادما وشاهدا بما رأيت وبما سأُظهر لك ، منقذا إياك من الشعب ومن الأمم الذين أنا الآن أرسلك إليهم " ([3]) .

ولما كانت هذه القصة الأساس الوحيد الذي بنى عليه بولس إعلانه دخول المسيحية ، ثم اختياره رسولا من المسيح للتبشير بها ، كان من اللازم تمحيصها وإلقاء الضوء عليها لتتضح الحقيقة :

ويلاحظ أن هذه القصة وردت في الثلاثة مواضع السابقة من سفر أعمال الرسل ، وهناك اختلاف بين تلك الروايات : فالأصحاح التاسع يخبر بأن الذين كانوا مع بولس "

([1]) أعمال الرسل ٢٢ : ٦ - ١٠ .

([2]) العبرانية : (٢ مل ١٨ : ٢٦ و ٢٨ ، إش ٣٦ : ١١ و ١٣ ، ١٩ : ١٨) ، هي إحدى اللغات السامية ، وقد وجدها إبراهيم " عليه السلام " في أرض كنعان لما قدم من ما بين النهرين . وكانت تلك اللغة شديدة الشبه بلغات الدول والقبائل الأخرى في سوريا في ذلك الحين . وقد كتبت معظم أسفار العهد القديم بالعبرانية ، باستثناء سفر دانيال وعزرا فقد كُتبت أجزاء منهما بالآرامية . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٥٩٨ .

([3]) أعمال الرسل ٢٦ : ١٢ - ١٧ .

وقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحدا " ، وفي الأصحاح الثاني والعشرين أن الذين كانوا معه " نظروا النور ٠٠٠ لم يسمعوا الصوت " ، وفي الأصحاح السادس والعشرين أنهم " نظروا النور ، وسقطوا على الأرض " ٠ وهناك اختلاف آخر هو أن المسيح " عليه السلام " لم يرسله على الفور ، بل أمره بالذهاب إلى دمشق حيث يعطيه الرسالة ويخبره بما سيفعل ، وهذا في الأصحاح الثاني والعشرين ، أما الأصحاح السادس والعشرون فيخبر بأن المسيح "عليه السلام" أعطاه الرسالة فورا مع وعد بإنقاذه من اليهود والأمم الأخرى (١) ٠ والقاعدة الأصولية التي تضبط حكم الناس في مختلف القضايا ، أن ما تسرب إليه الاحتمال سقط به الاستدلال ، وهذا ليس تسربا لاحتمال بل تناقض واختلاف واضح للعيان ، في قصة حولت مجرى عقيدة وتاريخ المسيحية ٠

ج ـ سبب هذا التحول المفاجئ :

دخل بولس المسيحية وأصبح معلِّما لها ، وتم ذلك بهذا النسق الذي يصدقه قوم ، ويراه آخرون قصة مخترعة لم يُجِد حبْكها ٠

إن تاريخ الرسالات السماوية حافل بالكثيرين ممن كانوا من أشد الناس عداوة لها وكفرا بها ، ثم ما لبثوا ـ بعد أن آمنوا بها ـ أن تحولوا إلى أخلص دعاتها ، لكنهم بعد أن تلقَّوا تعاليمها من صاحب الدعوة ذاته أو من صحابته وتابعيه ، أما مشكلة بولس فهي فريدة في نوعها ، فمع أنه لم يكن أصلا من تلاميذ المسيح " عليه السلام " ، ولم يحظ برؤيته والحديث إليه ـ ولو مرة واحدة ـ في حياته ، إذا به بعد أن أعلن نفسه رسولا للمسيح " عليه السلام " ، يقرر أن مفهومه للمسيحية إنما هو شيء يختص به ، تلقاه من المسيح " عليه السلام " مباشرة في تلك الرؤيا ، ومن ثم فلا حاجة إلى استشارة تلاميذ المسيح " عليه السلام " وحوارييه (غلاطية ١ : ١ ـ ١٧) ٠

ولقد يعجب الذين درسوا الديانات ، فيقولون : كيف ينتقل رجل من كفر بديانة إلى اعتقاد شديد بها طفرة ، ولكنَّ ذلك العجب يزول إن كان الانتقال مقصورا على مجرد

---

(١) انظر : حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٢٨ ـ ٣٠ ٠

الانتقال من الكفر إلى الإيمان ، بل العجب كل العجب أن ينتقل شخص من الكفر المطلق بدين إلى أن يصبح رسولا ومؤسِّسا للدين الذي كفر به وناوأه وعاداه ([١]) .

وسبب هذا التحول المفاجئ هو عداوة بولس للمسيحية ، فبعد أن عجز عن محاربتها بالاضطهاد ، قرر أن يلجأ إلى سلاح الدسّ والتدمير من الداخل ، فدخلها ليأخذ من اعتناقه الظاهري لها سلاحا يطعنها به ، ومثل هذا كثير في تاريخ الأديان ، ومن أشهرهم في الإسلام عبد الله بن سبأ اليهودي ([٢]) ، الذي تظاهر بالإسلام ، وأخفى كفره وعداوته لهذا الدين ، ليتمكن من القضاء عليه القضاء المبرم الأخير ، ولكن أفكار عبد الله بن سبأ لم تستطع أن تعيش وتنمو كما عاشت ونمت أفكار بولس ، لأن القرآن الكريم كان محفوظا ومكتوبا ، أما إنجيل عيسى " عليه السلام " فضاع بين طيات الأحداث ، فلم يكن للمسيحية عماد يحميها من هذه الصدمات العنيفة التي أنزلها بها

([١]) انظر : حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٣٢ . محاضرات في النصرانية : الإمام محمد أبو زهرة ، ص ٦٩ .

([٢]) عبد الله بن سبأ اليهودي : يقول المؤرخون إن هذه الشخصية من صنعاء باليمن ، ولأنه من أم حبشية فكثيراً ما يطلق عليه "ابن السوداء" ، وهو من أصول يهودية ، أسلم نفاقا زمن عثمان بن عفان ليكيد بالإسلام وأهله ، وتُنسب إليه روايات تاريخية بأنه هو مشعل الاضطرابات والاحتجاجات ضد الخليفة الثالث عثمان بن عفان في الخفاء، وكان من الغلاة بحب علي بن أبي طالب ومدعٍ لألوهيته، وقام سيدنا علي بإحراق بعض أتباعه، ثم قام بنفي ابن سبأ للمدائن ، وبعد استشهاد علي، ادعى ابن سبأ غيبته بعد وفاته .
وهو أول من نادى بولاية علي بن أبي طالب وبأن لكل نبي وصياً وأن وصي هذه الأمة هو علي بن أبي طالب، وهو أول من أظهر الطعن والشتم في الصحابة وخصوصاً أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعائشة بنت أبي بكر زوج الرسول " صلى الله عليه وسلم " ، فابن سبأ أصل التشيع بصفة عامة وأصل الفتن الإسلامية الأولى كفتنة مقتل عثمان وهو يقرأ القرآن سنة 35 هـ، وبمقتل الخليفة عثمان بن عفان كان ابن سبأ قد فتح باباً لفتن أخرى طال أمدها بين المسلمين ، ومنها حرب الجمل ، ويسمى أتباعه بالسبئية . انظر : الموسوعة الحرة .

أعداءٌ من الداخل وأعداء من الخارج ، فسقطت مسيحية عيسى " عليه السلام " ، وقامت على أنقاضها مسيحية بولس ([1]) .

ثالثا : بولس والحواريون ومصادر المسيحية :

أ . بولس والحواريون :

يحكي سفر أعمال الرسل قصة اتصال بولس بالحواريين ، بعد دخوله المسيحية ، وخوف الحواريين منه ، وطمأنة برنابا ([2]) لهم ، فكان بولس مع الحواريين يدخل ويخرج في أورشليم ، ويجاهر باسم الرب يسوع ، وفي هذا يقول سفر الأعمال : " ولما جاء شاول إلى أورشليم حاول أن يلتصق بالتلاميذ ، وكان الجميع يخافونه غير مصدقين أنه تلميذ ، فأخذه برنابا وأحضره إلى الرسل ، وحدثهم كيف أبصر الرب في الطريق وأنه كلمه ، وكيف جاهر في دمشق باسم يسوع " ([3]) . لقد رفض تلاميذ المسيح " عليه السلام " قبول بولس بينهم ، لولا شفاعة برنابا الذي شهد له سفر أعمال الرسل

([1]) انظر : المسيحية : الدكتور أحمد شلبي ، ص ١٤٣ . وهناك علماء آخرون قالوا بهذا الرأي في سبب تحول بولس إلى المسيحية . انظر : دراسات في الأديان : اليهودية والنصرانية : الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هـ ، مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة) ، ص ٢٢٢ . أقانيم النصارى : الدكتور أحمد حجازي السقا ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٧ هـ . ١٩٧٧ م ، دار الأنصار (القاهرة) ، ص ١٢٧ . النصرانية والإسلام عالمية الإسلام ودوامه إلى قيام الساعة : المستشار محمد عزت الطهطاوي ، مطبعة التقدم ، ص ٢٧٣ و ٢٧٤ . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء : دراسة مقارنة للمسيحية : الدكتور رءوف شلبي ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ هـ . ١٩٨٥ م ، دار التوحيد (المنصورة) ، ص ١٠٧ .

([2]) برنابا : اسم آرامي معناه " ابن الوعظ " وهو لاوي قبرصي الجنس ، اعتنق المسيحية في زمان الرسل ، فترك علاقاته العالمية ، وابتدأ يجاهد في نشر بشرى الخلاص في العالم ، ويحث الناس على اعتناق المسيحية ، وهو الذي رحب ببولس بعدما قبل المسيح ، وعرَّف التلاميذ عليه لما رجع من دمشق إلى أورشليم (أع ٤ : ٣٢) ، وأخذ بولس من طرسوس إلى أنطاكية وبشرا هناك باسم المسيح فنجحا نجاحا عظيما (أع ١١ : ٢٥ و ٢٦) ، ثم سافرا للتبشير في السفرة التبشيرية الأولى (أع ص ١٣) ، وحضرا مجمع أورشليم (أع ١٥ : ٢٢) ، وذهب برنابا ومرقس إلى قبرص (أع ١٥ : ٣٩) . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ١٧٢ .

([3]) أعمال الرسل ٩ : ٢٦ و ٢٧ .

بالتقوىٰ والصلاح : " لأنه كان رجلا صالحا وممتلئا من الروح القدس والإيمان " ([1]) ، فكان برنابا موضع ثقة التلاميذ ، وكنيستُهم الأولىٰ اعتبرته مفوِّضَها وخاصة في المواقف الصعبة .

ولكن لما بدأ بولس ينحرف عن المسيحية الحقة ، إلىٰ مسيحية اتخذت من البشر آلهة ، تموت فداء عن البشر ، حينئذ اختلف معه حواريو المسيح ، وفي مقدمتهم برنابا ([2]) . ولقد نص سفر أعمال الرسل علىٰ هذا الخلاف أو الشجار بين برنابا وبولس ، بالقول : " فحصل بينهما مشاجرة حتىٰ فارق أحدهما الآخر " ([3]) . وبعد ذلك اختفىٰ برنابا ونشاطه التبشيري من سفر أعمال الرسل، كما اختفىٰ كل من اصطدم ببولس من التلاميذ، فهذا سفر أعمال بولس وليس الرسل.

وتذكر الأناجيل أن المسيح " عليه السلام " اختار اثني عشر تلميذا ، جعلهم رسله للتبشير في بني إسرائيل ، وكان بطرس([4]) رئيسهم والمفوَّض في قيادتهم ، وفي أن يقول ويفعل في رسالة المسيح " عليه السلام " ما يشاء ، وهذا ما نص عليه إنجيل متىٰ حين خاطب المسيح " عليه السلام " بطرس قائلا : " وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ما تربطه علىٰ الأرض يكون مربوطا في السماوات وكل ما تحلُّه علىٰ

([1]) أعمال الرسل ١١ : ٢٤ .

([2]) انظر : حقيقة التبشير : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٣١ و ٣٤ ـ ٣٦ .

([3]) أعمال الرسل ١٥ : ٣٩ .

([4]) بطرس : اسم يوناني معناه " صخرة أو حجر " ، وكان هذا الرسول يسمىٰ أولا سمعان ، ويُرجَّح أن بطرس كان تلميذا ليوحنا المعمدان قبل مجيئه إلىٰ المسيح ، وقد دعاه المسيح ليكون تلميذا ورفيقا له (مت ٤ : ١٩ ، مر ١ : ١٧ ، لو ٥ : ١٠) ، ثم دعاه ليكون رسولا لـه (مت ١٠ : ٢ ، مر ٣ : ١٤ و ١٦ ، لو ٦ : ١٣ و ١٤) ، يُذكر اسمه دائما أولا عند ذكر أسماء الرسل (مت ١٠ : ٢ ، مر ٣ : ١٦ ، لو ٦ : ١٤ ، أع ١ : ١٣) ، وقد كتب رسالتين : الأولىٰ كتبت من رومية ، والثانية كانت رسالة رعوية موجهة إلىٰ المسيحيين في كل مكان لتحذرهم من التعاليم الزائفة ، وتحثهم علىٰ التمسك بالإيمان . انظر قاموس الكتاب المقدس ، ص ١٧٤ ـ ١٧٨ .

الأرض يكون محلولا في السماوات " ([1]) ٠ واستمر بطرس في قيادة التلاميذ بعد رفع المسيح " عليه السلام " ، فكان هو الرئيس والمعلم والخطيب ، وهو الذي اختار تلميذا بدلا من يهوذا الخائن ، ولكن هذا الحال ما لبث أن تغير تماما وتغير معه مفهوم الدعوة ومسارها ، حين ظهر بولس فجأة في مجتمع التلاميذ ، فكان ظهوره انقلابا على تلاميذ المسيح " عليه السلام " والدعوة التي تلقوها من معلمهم ٠ ولم يلبث بولس أن اشتبك في صراع مع بطرس شيخ التلاميذ ، واتهمه بالرياء والنفاق ومعه عدد من اليهود وبرنابا ([2]) ٠ " وراءى معه (بطرس) باقي اليهود حتى إن برنابا أيضا انقاد إلى ريائهم " ([3]) ٠ واختفى بطرس ونشاطه التبشيري من سفر أعمال الرسل كما اختفى برنابا ٠

ب . بولس ومصادر المسيحية :

دخل بولس المسيحية لتدميرها من الداخل ، وخلَق دينا جديدا سلب له كلمة المسيحية ووضعها عليه ، وأدخل على الدين الذي جاء به المسيح " عليه السلام " ([4])

([1]) متى ١٦ : ١٩ ٠

([2]) انظر : حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٢٥ - ٢٧ ٠

([3]) غلاطية ٢ : ١٣ ٠

([4]) تقوم مسيحية المسيح " عليه السلام " وتلاميذه والمسيحيون الأوائل على التوحيد الخالص ، وعدم الخلط بين الله والمسيح " عليه السلام " ، ولا تزال لها بقايا في الأناجيل ، من ذلك : " لماذا تدعوني صالحا ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله " (متى ١٩ : ١٧) ، " وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته (يوحنا ١٧ : ٣) ، " أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئا " (يوحنا ٥ : ٣) ، " تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني " (يوحنا ٧ : ١٦) ، " أنتم تدعوني معلما وسيدا وحسنا تقولون لأني أنـــا كذلك " (يوحنا ١٣ : ١٥) ، ولا تزال تلك العقيدة تنطق بها الأصحاحات الأولى من سفر أعمال الرسل ، التي تتكلم عن الفترة التي سبقت ظهور بولس في مجتمع التلاميذ (أعمال الرسل ٢ : ٢٢ ، ٣ : ١٣ و ٢٢ و ٢٤ و ٢٦ ، ٤ : ٢٧ ، ٧ : ٣٧) ٠ انظر : حقيقة التبشير : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٤٦ و ٤٧ ٠

الكثير من البدع العقائدية ([1]) والتشريعية ([2]) ، وكانت رسائله هي مصادر التشريع في هذه المسيحية الجديدة ، ونَقَل الدين الذي جاء به عيسى " عليه السلام " من كوْنه

([1]) بولس والعقيدة المسيحية : لقد أدخل بولس على المسيحية الحقة عقائد رئيسة ، كانت هي الأساس الذي أخذت به المجامع الكنسية ، وقررتها كعقيدة نهائية للمسيحيين فيما بعد ، من هذه العقائد : عقيدة التثليث وما يتبعها من ألوهية الآب والابن (المسيح) والروح القدس ، وعقيدة التجسد والصلب من أجل الخلاص وكفارة عن خطايا البشر ، وعقيدة القيامة والدينونة . هذه العقائد تحدثت عنها تفصيلا في الباب الثاني من رسالتي للماجستير (تطور العقيدة المسيحية بين عيسى " عليه السلام " وبولس) ، وللتعرف على هذه العقائد التي أدخلها بولس على المسيحية ، راجع : الملة والنحلة في اليهودية . المسيحية . الإسلام : الدكتور حمدي عبد العال ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ . ١٩٨٩ م ، دار القلم للنشر والتوزيع (الكويت) ، ص ١١٦ و ١١٧ . المسيح في مصادر العقائد المسيحية : اللواء أحمد عبد الوهاب ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٨ هـ . ١٩٨٨ م ، مكتبة وهبة (القاهرة) ، ص ١٩١ و ١٩٢ . حقيقة التبشير : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٤٣ . ٤٨ . مشكلات العقيدة النصرانية : الدكتور سعد الدين السيد صالح ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ . ١٩٨٤ م ، مطبعة دار البيان بمصر ، ص ١٠٠ ـ ١٠٢ و ١٣٢ . النصرانية من التوحيد إلى التثليث : الدكتور محمد أحمد الحاج ، الطبعة الأولى ، ١٤١٣ هـ . ١٩٩٢ م ، دار القلم (دمشق) ، الدار الشامية (بيروت) ، ص ١٤٥ .

([2]) بولس والشريعة المسيحية : أعلن بولس أن تعاليم الشريعة اليهودية قد نسختها تعاليم المسيح " عليه السلام " ، وأن المسيح " عليه السلام " أتى خصيصا ليبدل عهدا قديما بعهد جديد ، كما أبطل بولس جميع أحكام التوراة العملية ، ولم يستثن منها غير أحكام حرمة ذبيحة الصنم والدم والمخنوق والزنا ، وأبطل شريعة موسى " عليه السلام " في الختان ، إرضاء للجدد من المشركين وبقية المجتمع اليوناني ،
وأجاز زواج الأساقفة ولكن بامرأة واحدة . وأدخل بولس على الشريعة المسيحية طقوسا كثيرة ، وهو الذي أوصى بما نراه اليوم في الكنائس من الأغاني والمزامير والتراتيل . للتعرف على المزيد مما أدخله بولس على الشريعة المسيحية ، راجع : المسيحية نشأتها وتطورها : شارل جينيبير ، ص ١٠٤ . النصرانية والإسلام : المستشار محمد عزت الطهطاوي ، ص ٢٥٩ . النصرانية من التوحيد إلى التثليث : الدكتور محمد أحمد الحاج ، ص ١٤٦ . المسيح " عليه السلام " بين الحقائق والأوهام : محمد وصفي ، مراجعة وتقديم علي الجوهري ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع (القاهرة) ، ص ٦٤ و ٦٥ . تطور العقيدة المسيحية بين عيسى " عليه السلام " وبولس : الباحث ، ص ٢١٠ و ٢١١ .

دينا خاصا ببني إسرائيل إلى العالمية ([1]) ، وأخذ يبشر بهذا الدين المفترى بين الأمم ، واعتُبر مبشِّرَ المسيحية الأول ، وهذا ليس تبشيرا إنما هو تنصير ، وبولس بهذا ارتكب جريمتين كبيرتين وخطأين جسيمين : الأول : أنه انحرف بالمسيحية عن مسارها العقدي والتشريعي الذي نزل من السماء ، وأخذ يبشر بمسيحية لا تمت إلى الأولى بصلة . الثاني : أنه خرج بالمسيحية عن إطار دعوتها المحلية إلى العالمية .

وإذا قرأنا الأناجيل الأربعة لا نجد المسيح " عليه السلام " إلا معظما للتوراة ، جاعلا تشريعها منهج شريعته من غير أن ينقص أو ينقض منها شيئا : " لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل " ([2]) ، ولما سأله أحد الكتبة عن الوصية التي ينبغي أن تحتل المكانة الأولى في الدين والعقيدة ، قال له : " إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد وتحب الرب ألهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ... هذه هي الوصية الأولى " ([3]) ، فهذه الوصية الأولى من وصايا المسيح " عليه السلام " قد اقتبسها من التوراة ([4]) (التثنية

([1]) التبشير بين النظرية والتطبيق : الدكتور مجدي فهيم ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م ، ص ٥١ بتصرف .

([2]) متى ٥ : ١٧ .

([3]) مرقس ١٢ : ٢٩ و ٣٠ .

([4]) التوراة : كلمة عبرانية معناها الشريعة أو الناموس ، ويراد بها عند اليهود الشريعة التي أبلغها موسى " عليه السلام " قومه في سيناء بعد خروجهم من مصر ، وهي أهم الكتب المقدسة في عقيدة اليهود . والتوراة عند النصارى هي الأسفار الخمسة والكتب الملحقة بها ، وتسمى عندهم العهد القديم . أما عند المسلمين فهي الكتاب الذي أنزله الله على موسى " عليه السلام " نورا وهدى لبني إسرائيل ، وقد ذكرت في القرآن الكريم ثماني عشرة مرة . انظر : دراسات فى الأديان : اليهودية والنصرانية : الدكتور سعود بن عبد العزيز الخلف ، ص ٥١ و ٥٢ . الملة والنحلة في اليهودية . المسيحية . الإسلام : الدكتور حمدي عبد العال ، ص ٤١ . موسوعة الملل والنحل : أبو الفتح الشهرستاني ، الطبعة الأولى ، ١٩٨١ م ، مؤسسة ناصر للثقافة (بيروت) ، ص ٩٥ . محنة التوراة على أيدي اليهود : عصـام الدين حفني ناصف ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٥هـ -

٦ : ٤ ـ ٦) ، ولما كانت مقولة المسيح " عليه السلام " هذه مصدقة لما أتى به موسى " عليه السلام " في التوراة ، قال السائل ـ وهو عالم التوراة إذ هو من طائفة الكتبة ـ : " جيدا يا معلم بالحق قلت لأنه الله واحد وليس آخر سواه ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة " ([1]) ، ويقول سفر التثنية : " ملعون من لا يقيم كلمات هذا الناموس ليعمل بها ويقول جميع الشعب آمين " ([2]) ، وهذا ما أكده الإنجيل بقوله : " فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل ، فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر في ملكوت السماوات ، وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السماوات " ([3]) ، وهكذا لم يتجاوز المسيح " عليه السلام " ولم يكن له أن يتجاوز ما تقرره التوراة ،

ولكننا حين نتصفح رسائل بولس المسجلة ضمن أسفار العهد الجديد نجدها تسير بالناس في طريق آخر ، وتضرب بشريعة موسى " عليه السلام " عرض الحائط في غير هيبة ولا مبالاة ، فنراه يأمر بنبذ التوراة وتعاليمها ، ويجعل من يعمل بالناموس كأنما يصطدم بحجر عثرة ربما يكون هلاكه في عثرته ، يقول في رسالته إلى رومية ([4]) : " ولكن إسرائيل وهو يسعى في ناموس البر لم يدرك ناموس البر ، لماذا ؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان بل كأنه

١٩٦٥م ، مطبعة الرسالة (القاهرة) ، ص ٤ ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ، دار الحديث (القاهرة) ، ص١٥٨ .

([1]) مرقس ١٢ : ٣٢ و ٣٣ ،

([2]) تثنية ٢٧ : ٢٦ ،

([3]) متى ٥ : ١٨ و ١٩ ،

([4]) رومية : عاصمة الإمبراطورية الرومانية ، وحينما طالب بولس بحقه كحامل الجنسية الرومانية ورفع دعواه إلى الإمبراطور ، أتي به إلى رومية (أع ٢٨ : ١٤ و ١٦) ، وكان يهود من رومية في أورشليم يوم الخمسين (أع ٢ : ١٠) ، وأرسل بولس إحدى رسائله إلى الكنيسة في رومية ، انظر : أطلس الكتاب المقدس ، ص ١٧ ،

بأعمال الناموس ، فإنهم اصطدموا بحجر الصدمة ، كما هو مكتوب ها أنا ذا أضع في صهيون حجر صدمة وصخرة عثرة وكل من يؤمن به لا يُخزىٰ " ([١]) ، ويقول أيضا : " لأن الكتاب يقول كل من يؤمن به لا يُخزىٰ " ([٢]) ، ويقول : " لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة " ([٣]) .

ولا يكتفي بولس بذلك بل يصرح علانية بأن التوراة ليست من عند الله ، بل هي عبارة عن مجموعة خرافات يهودية وتعاليم أناس مرتدين عن الحق : " ... وبخهم بصرامة لكي يكونوا أصحاء في الإيمان ، لا يصغون إلىٰ خرافات يهودية ووصايا أناس مرتدين عن الحق " ([٤]) ، ويجعل الذين يتكلمون بما في التوراة إنما هم يتكلمون بالباطل ومتمردون خدَّاعون مضلون : " فإنه يوجد كثيرون متمردين يتكلمون بالباطل ويخدعون العقول ولا سيما الذين من الختان ، الذين يجب سد أفواههم فإنهم يقلبون بيوتا بجملتها معلمين ما لا يجب " ([٥]) . والنجاة عند الله إنما هي بالإيمان ببنوة المسيح لله وأنه الفادي لخطايا البشر ، وليس بالعمل بتعاليم الناموس ، حيث أن الله وعد بالنجاة علىٰ لسان إبراهيم " عليه السلام " لمن آمن بالمسيح " عليه السلام " : " والكتاب إذ سبق فرأىٰ أن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر إبراهيم أن فيك تتبارك جميع الأمم ، إذ الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن " ([٦]) . ويقول بولس : " وأما الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس ... بر الله بالإيمان بيسوع المسيح ... فأين الافتخار ... أبناموس الأعمال ، كلا ، بل بناموس الإيمان ، إذا نحسب أن الإنسان

([١]) رومية ٩ : ٣١ - ٣٣ .

([٢]) رومية ١٠ : ١١ .

([٣]) غلاطية ٣ : ١٠ .

([٤]) تيطس ١ : ١٣ و ١٤ .

([٥]) تيطس ١ : ١٠ و ١١ .

([٦]) غلاطية ٣ : ٨ و ٩ .

يتبرر بالإيمان بدون أعمال الناموس " ([1]) • وفي هذا احتقار لما في التوراة ونبذ صريح لتعاليمها ([2]) •

والعهد الجديد ينقسم إلى قسمين : قسم يُعرف بالأسفار التاريخية ، وذلك يشمل الأناجيل التي وصفت حياة عيسى " عليه السلام " ، وتحدثت عن معجزاته وعظاته ، كما يشمل كذلك رسالة أعمال الرسل التي وصفت حياة الرسل بوجه عام وجهود بولس بوجه خاص ، وقسم يعرف بالأسفار التعليمية ، وهو يشمل الرسائل الأخرى التي توضح تعاليم المسيحية ، ومبادئها وشعائرها وقوانينها • وهذه المصادر بقسميها من عمل بولس أو من عمل أتباعه ، وليست الأسماء الموضوعة عليها إلا أسماء مستعارة غير حقيقية •

فالأناجيل والأبحاث التي تعارض اتجاه بولس فنيت إلى الأبد ، وفي قمتها إنجيل المسيح " عليه السلام " ثم ما كتبه الحواريون ، وما لم تظهر فيه معارضة لأفكار بولس كإنجيل متى([3]) ومرقس ([4]) حُفظ من أن يسلم إلى الفناء ، أما إنجيل لوقا ([5]) ويوحنا ([1]) والرسائل فهي بولسية كلها ، أي منسوبة إلى بولس وأتباعه بلا شك •

([1]) رومية ٣ : ٢١ و ٢٢ و ٢٧ و ٢٨ •

([2]) انظر : بولس والمسيحية : محمد أبو الغيط ، ص ٩١ ـ ٩٥ •

([3]) متى : الاسم في العبرية معناه " عطية من يهوه " ، وكان عشَّارا أي جابي ضرائب في مدينة كفر ناحوم ، وصائد أسماك ، ودعاه الرب يسوع ليكون تلميذا له (متى ٩ : ٩) ، وأصبح أحد الاثني عشر رسولا (متى ١٠ : ٢ و ٣) ، وهو الذي كتب الإنجيل أول سفر من أسفار العهد الجديد • انظر : دائرة المعارف الكتابية ، ج ٧ ص ٧٨ •

([4]) مرقس : هو يوحنا الملقب مرقس ابن مريم ، وكان اسمه اليهودي يوحنا ، أما مرقس فاسمه الروماني ، ولعل موطن أسرته كان قبرص ، ثم هاجرت أسرته إلى أورشليم ، وكتب إنجيله تسجيلا لذكريات الرسول بطرس وتعليمه عن الرب يسوع • انظر : دائرة المعارف الكتابية ، ج ٧ ص ٥٢٠ و ٥٢١ •

([5]) لوقا : لوقا أو " لوقاس " أي مانح النور " ، ويذكر الرسول بولس لوقا ثلاث مرات في رسائله ، ولا يُعلم الموطن الأصلي للوقا ، وتذكر بعض المراجع أنه كان في أنطاكية ، ويصفه الرسول بولس بالقول " الطبيب الحبيب " • انظر : دائرة المعارف الكتابية ، ج ٧ ص ٥٩ • إنجيل لوقا هو الإنجيل الثالث ، وقد وُجِّه إلى

وإذا كان بولس قد رفض التعاليم اليهودية المستمدة من التوراة ، والتي أوصى المسيح " عليه السلام " بالعمل بها ، وكانت رسائله أساسَ العهد الجديد ، وما سواها فهو تكرار وصدى لمضمونها ، فإن بولس ادعى أن له إنجيلا خاصا به ، ورغم أنه لم يتدرب على التبشير بالمسيحية في القدس ، أو على أيدي الحواريين الاثني عشر ، إلا أنه لم يعتبر نفسه تابعا لهم ، بل أيقن أن المسيح " عليه السلام " نصَّبه حواريا ، وأعطاه الإنجيل ، وبالتالي فهو ليس في حاجة إلى إرشاد أو نصح من بشر أيا كان ، وهذا ما صرح به بولس في رسالته إلى أهل غلاطية حيث يقول : " وأعرفكم أيها الإخوة الإنجيل الذي بشرت به أنه ليس بحسب إنسان ولا علمته بل بإعلان يسوع المسيح ... ولكن لما سُرَّ الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن ابنه فيّ لأبشر به بين الأمم للوقت لم أستشر لحما ودما " ([2]) . وعلى هذا فإن بولس يزعم أن له إنجيلا أنزله المسيح " عليه السلام " عليه وخصه به دون الحواريين ، وأمره أن يكرز به ، يقول بولس في رسالته الثانية إلى تيموثاوس : " الرب (المسيح) جُعلتُ أنا له كارزا ورسولا ومعلما للأمم " ([3]) . كما يدَّعي بولس أن هناك إنجيلين : أحدهما إنجيل الغرلة ، والآخر إنجيل الختان ، وقد اختص هو بإنجيل الغرلة ، للتبشير بين الأمم من غير اليهود ، وأغناهم به عن الختان وأعمال الناموس ، وجعل يردد ذكر ذلك الإنجيل في رسائله مرات ومرات ، ويسميه بأسماء متعددة ، قد تتناقض مع بعضها أحيانا : فتارة يقول " إنجيلنا "

شخص شريف يدعى ثاوفيلس ، يرجح أنه أحد المسيحيين من أصل أممي ، وكل الدلائل تشير إلى أن هذه البشارة كتبت حوالي عام ٦٠ م . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٨٢٢ و ٨٢٣ .

([1]) يوحنا : هو يوحنا الرسول ابن زبدى الذي كان صيادا في بحر الجليل (مرقس ١ : ١٩ و ٢٠) ، وأمه سالومة (متى ٢٧ : ٥٦) ، إحدى النساء اللاتي تبعن الرب يسوع ، وكان أولا من تلاميذ يوحنا المعمدان (١ : ٣٥ . ٣٩) . انظر : دائرة المعارف الكتابية ، ج ٨ ص ٣٣٩ .

([2]) غلاطية ١ : ١١ و ١٥ و ١٦ .

([3]) ثيموثاوس الثانية ١ : ١١ .

([1]) ، وأخرىٰ يقول " إنجيلي " ([2]) ، ومرة يقول " إنجيل المسيح " ([3]) ، وأخرىٰ يقول " إنجيل الله " ([4]) .

وزعم أن إنجيله هذا هو الكتاب الوحيد الذي سيبين الله به سرائر الناس يوم القيامة ، مع أن البشرية لم تشهد ذلك الإنجيل ، ولا أحد يعلم مكانه أو صفته أو حجمه أو موضوعه ، كما لم نجد له ذكرا في كلام المسيح " عليه السلام " ولا في كلام الحواريين ولا في الأناجيل الأربعة ، وورد اسمه فقط في كلام بولس ، وقد تكون رسائله الأربع عشرة المعزوة إليه هي ذلك الإنجيل الذي يدَّعيه بولس ([5]) .

وإنه لمن العجب أن يؤمن قوم بكتاب لا وجود له ، وأن يصدقوا دعوىٰ مدَّعيه بمجرد كلامه عنه ، وكان الأجدر به وبهم أن يجدُّوا في البحث عن إنجيل المسيح الحقيقي ، الذي جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة .

رابعا : تبشير بولس بين الأمم :

أ ـ خصوصية رسالة المسيح " عليه السلام " :

رسالة المسيح " عليه السلام " رسالة محلية خاصة ببني إسرائيل ، وهذا ما أكدته نصوص كثيرة في أسفار العهد الجديد ، من تلك النصوص :

جاء في الأصحاح الأول من إنجيل متىٰ عن مريم : " فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم " ([6]) ، أي أنه يخلص شعبه اليهودي من جرم خطاياه .

([1]) تسالونيكي الأولى ١ : ٥ . تسالونيكي الثانية ٢ : ١٤ .

([2]) رومية ٢ : ١٦ ، ١٦ : ٢٥ .

([3]) كورنثوس الثانية٩ : ١٣ . رومية ١٥ : ١٩ .

([4]) كورنثوس الثانية ١١ : ٧ . رومية ١٥ : ١٦ .

([5]) انظر : بولس والمسيحية : محمد أبو الغيط ، ص ١١٢ و ١١٣ .

([6]) متىٰ ١ : ٢١ .

ويخاطب المسيح " عليه السلام " بيت لحم ([1]) مسقط رأسه قائلا : " وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبي إسرائيل " ([2]) ، وفي النص دلالة على أن مهمة المسيح " عليه السلام " رعاية شعب إسرائيل فقط .

وعندما أرسل المسيح " عليه السلام " تلاميذه الاثني عشر حذر من نقل دعوته إلى الأمم والشعوب الأخرى ، وأوصاهم بدعوة بني إسرائيل فقط ، قائلا : " إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة " ([3]) ، فوصية المسيح " عليه السلام " للتلاميذ هي أن يحصروا عملهم بين أمتهم ومدنهم اليهودية ولا يتجاوزوها . وفي الأصحاح الخامس عشر من نفس السفر نص آخر يدل دلالة صريحة على كون دعوة المسيح " عليه السلام " خاصة ببني إسرائيل ، حيث يقول متى : " ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور ([4])

([1]) بيت لحم : اسم عبري معناه " بيت الخبز " ، وهي قرية صغيرة تبعد ستة أميال إلى الجنوب من أورشليم ، وُلد فيها المخلص حسب النبوات (مت ٢ : ٥) ، ولبيت لحم أكثر من ٤٠٠٠ سنة منذ أُسست ، وقد رَمَّم يوستنياس أسوارها سنة ٣٣٠ م ، وبنت الإمبراطورة هيلانة كنيسة فوق المغارة التي يُظَنُّ أن المخلص وُلد فيها . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٢٠٥ و ٢٠٦ .

([2]) متى ٢ : ٦ .

([3]) متى ١٠ : ٥ و ٦ .

([4]) صور : اسم سامي معناه : صخر " ، وهي مدينة فينيقية شهيرة قديمة جدا (اش ٢٣ : ٧) ، وبلغت أهميتها بعد صيدون (تك ١٠ : ١٥ ، اش ٢٣ : ١٢) ، وأُسست سنة ٢٧٥٠ ق٠م ، وكانت تعتبر حصنا في أيام داود (٢ صم ٢٤ : ٧) ، وتنبأ إرميا عن خضوع صور (إر ٢٧ : ١ - ١١) ، ومر الرب يسوع مرة على شواطئ صور وصيدا (مت ١٥ : ٢١ - ٢٨ ، مر ٧ : ٢٤ - ٣١) ، ودخلت النصرانية إلى صور منذ بدء العصر الرسولي ، وكانت فيها كنيسة مر بها بولس ومكث فيها سبعة أيام (أع ٢١ : ٣ و ٤) . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٥٥٩ - ٥٦١ .

وصيداء (1) ، وإذا امرأة كنعانية (2) خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة ارحمني يا سيد يا ابن داود ابنتي مجنونة جدا ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة " (3) ، فقد حدد المسيح " عليه السلام " لنفسه ولتلاميذه مجال عمله ، ودائرة التبشير التي ينبغي التجول فيها ، وبيَّن بكل وضوح أن رسالته تختص بالشعب الإسرائيلي ، ورغم صراخ المرأة وحاجتها الشديدة لشفاء ابنتها إلا أن المسيح " عليه السلام " لم يغير موقفه ، لأنه مُرسل إلى بني إسرائيل خاصة .

وورد في الأصحاح التاسع عشر من هذا الإنجيل عن حساب يوم القيامة : " متى جلس ابن الإنسان على جرسي مجده تجلسون أنتم أيضا على اثني عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر " (4) ، فدينونة المسيح "عليه السلام" وتلاميذه تتلخص في أسباط إسرائيل الاثني عشر الذين يتكوَّن منهم الشعب اليهودي .

وحين رفض اليهود دعوة المسيح " عليه السلام " لم ينصرف بها إلى غيرهم ، بل خاطبهم بالمكان الذي يجتمعون فيه قائلا : " يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة

---

(1) صيداء : هي إحدى موانئ فينقية ، وأقدم مدنها (تك ١٠ : ١٥) ، عُرفت بتجارتها البحرية (اش ٢٣ : ٢ و ٤ و ١٢ ، حز ٢٧ : ٨) ، ودعيت صيدون العظيمة أو الكبيرة أو الكبرى في (يش ١١ : ٨ ، ١٩ : ٢٨) ، وتنبأ يوئيل ضدها (٣ : ٤ ...) ، ونزل بولس فيها على طريقه إلى رومية (أع ٢٧ : ٣) ، ودعيت صيداء في العهد الجديد (مت ١١ : ٢١ و ٢٢) . انظر : أطلس الكتاب المقدس ، ص ١٩ .

(2) الكنعانيون : هم أبناء القبائل التي قطنت أراضي غربي الأردن المسماة كنعان ، وجدهم كنعان بن حام الرابع ، وتخصَّصوا في التجارة حتى أصبح اسم كنعاني مرادفا للتاجر ، وعبدوا آلهة كثيرة . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٧٨٩ و ٧٩٠ .

(3) متى ١٥ : ٢١ - ٢٤ .

(4) متى ١٩ : ٢٨ .

المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا " ([١]) ٠

ويبين إنجيل لوقا أنه قبل أن تحمل مريم العذراء بابنها المسيح " عليه السلام " ، كانت بشارة الملاك إليها تؤكد على أن رسالة المسيح " عليه السلام " تختص بالشعب الإسرائيلي ، إذ قال لها : " لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، ها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوعا ، وهذا يكون عظيما وابن العلي يدعى ، ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية " ([٢]) ، فالملاك حين بشر السيدة مريم العذراء بولادة يسوع ، أخبرها بأنه سيُملَّك على شعب اليهود فقط (بيت يعقوب) ٠ وفي إنجيل يوحنا نص واضح وصريح في الخصوصية ، حيث يقول صاحب هذا الإنجيل عن المسيح " عليه السلام " : " إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله " ([٣]) ، وخاصته هم شعب اليهودية ، الذين لم يرحبوا به ولم يقبلوه ، بعد أن أعلن نفسه رسولا إليهم ٠

وفي سفر أعمال الرسل فقرات كثيرة تدل على أن الحواريين من بعد المسيح " عليه السلام " كانوا يتمسكون بالمسيحية دينا لبني إسرائيل خاصة ، وقد خاصم اليهود بطرس لأنه دخل على غير اليهود وتكلم معهم ، يقول السفر : "ولما صعد بطرس إلى أورشليم خاصمه الذين من أهل الختان قائلين إنك دخلت إلى رجال ذوي غلفة وأكلت معهم " ([٤]) ٠ وقال بطرس لغير اليهود: "أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودي أن يلتصق بأحد أجنبي أو يأتي إليه" ([٥]) ٠ وفي أعمال الرسل كذلك : " الكلمة التي

([١]) متى ٢٣ : ٣٧ و ٣٨ ٠

([٢]) لوقا ١ : ٣٠ - ٣٢ ٠

([٣]) يوحنا ١ : ١١ ٠

([٤]) أعمال الرسل ١١ : ٢ و ٣ ٠

([٥]) أعمال الرسل ١٠ : ٢٨ ٠

أرسلها إلى بني إسرائيل يبشر بالسلام بيسوع المسيح ٠٠٠ وأوصانا أن نكرز للشعب " ([1]) ، ويجب ملاحظة التحديد بقصر دعوة المسيح " عليه السلام " على اليهود وحدهم في قوله " الكلمة التي أرسلها إلى بني إسرائيل " ، ولم يقرنها بقرينة تجيز رسالته إلى غيرهم ، وكذلك في نصه على أن الوصية " أن نكرز للشعب " فهذا يعني أن الكرازة مقصورة على اليهود وحدهم ، ولا تتعداهم إلى الشعوب أو الأمم الأخرى ٠

ب . عالمية رسالة بولس :

تتسم رسالة المسيح " عليه السلام " بالخصوصية ، تلك الرسالة التي استطاع بولس أن ينقلها إلى العالمية ، وأفاض في شرحها برسائله ، واستطاع أن ينشرها قولا وفعلا ، ويجعلها من اعتقاد المسيحيين حتى اليوم ٠

يقول مؤلف " سيرة بولس الرسول " : " بولس الطرسوسي رسول الجهاد الأمين ، إلى هذا الرسول يرجع الفضل في المناداة بالمسيحية دينا جامعا شاملا ، فهو الذي حمل رسالتها إلى العالَمين اليوناني والروماني ، بعد أن كانت محصورة في تخوم فلسطين عقيب قيامة المسيح ، وصعوده إلى السماء " ([2]) ٠

إن أقوى ما يستدل به النصارى على عالمية المسيحية ومشروعية التبشير بها بين الأمم ، ما يلي :

تعلُّق النصارى بما ورد في إنجيل متى ، حيث ظهر المسيح " عليه السلام " للأحد عشر تلميذا بعد موته على الصليب وقيامته ، وقال لهم : " دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض ، فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس " ([3]) ❊ ٠ وإذا رجعنا إلى إنجيل مرقس رأيناه في الأصحاح الأخير منه يشير إلى

([1]) أعمال الرسل ١٠ : ٣٤ و ٤٢ ٠

([2]) سيرة بولس الرسول : حبيب سعيد ، الطبعة الثالثة ، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية مع دار الثقافة (القاهرة) ، المقدمة ٠

([3]) متى ٢٨ : ١٨ و ١٩ ٠

أن المسيح " عليه السلام " ظهر للأحد عشر تلميذا ، ووبخهم لقساوة قلوبهم وعدم إيمانهم ، ثم أمرهم بنشر الإنجيل في العالم بقوله لهم : " اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها " ([١]) ** .

وجاء في خاتمة إنجيل لوقا : " وقال لهم هكذا هو مكتوب ، وهكذا أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث ، وأن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم " ([٢]) ([٣]) .

---

* الاستدلال بهذا النص على تبشير العالم بالمسيحية باطل من أساسه ، لأن عبارة " تلمذوا جميع الأمم " لم ترد عن المسيح وقت حياته كلها ، ولم يسمعها منه تلاميذه وحواريوه ، كما تضمن النص عبارات التثليث ، مع أن التثليث وألوهية المسيح " عليه السلام " لم تتقرر إلا في القرن الرابع الميلادي في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، وألوهية الروح القدس لم تتقرر إلا في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م ، مما يقطع بأن هذه الفقرات مصطنعة ، يضاف إلى ما سبق أن فكرة قيام المسيح " عليه السلام " من بين الأموات بعد حادثة الصلب المزعومة ، تعارضت الأناجيل وتناقضت في عرضها ، مما يجعلنا لا نعترف بحدوثها . انظر : النصرانية والإسلام : المستشار محمد الطهطاوي ، ص ١٩٢ و ١٩٣ .

([١]) مرقس ١٦ : ١٥ .

** فرغ العلماء منذ أمد بعيد من الإقرار والتسليم بأن خاتمة إنجيل مرقس الوارد بها هذا النص ، لا وجود لها في أقدم وأصح النسخ ، وأنها قد أضيفت في وقت متأخر ، حتى إن بعض النسخ استباحت أن تضع ملخصا لهذا الجزء المضاف بدلا من نصه . انظر : عقائد النصارى الموحدين : حسني يوسف الأطير ، ص ٩٢ . التبشير في العالم الإسلامي أهدافه وآثاره (دكتوراه) : الدكتور محمد زين العابدين الطشو ، كلية أصول الدين بالقاهرة ـ قسم الدعوة والثقافة الإسلامية ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م ، ص ٢٠ .

([٢]) لوقا ٢٤ : ٤٦ و ٤٧ .

([٣]) مما يوهن من قيمة هذا النص ، أن كاتبه (لوقا) أممي دخيل ، لم ير المسيح " عليه السلام " ولا كان من تلاميذه ، واعتنق النصرانية على يد بولس ، الذي لم يكن هو أيضا تلميذا له ، وهو الداعية لتبشير الأمم ، وكل من لوقا وبولس خصم للمتهودين المنكرين لذلك . انظر : عقائد النصارى الموحدين : حسني الأطير ، ص ٩٣ و ٩٤ .

ويستدل النصارى بنصوص أخرى في إنجيل متى على عالمية المسيحية والتبشير بها بين الأمم ، من ذلك ما جاء في إنجيل متى : " هو ذا فتاي الذي اخترته حبيبي الذي سرت به نفسي أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق ... حتى يرج الحق إلى النصرة وعلى اسمه يكون رجاء الأمم (متى ١٢ : ١٨ و ٢٠ و ٢١) ، ونقرأ في

وبولس هو الجندي المعلوم لهذا التحول الخطير والنقلة الكبيرة للمسيحية من المحلية إلى العالمية ، فبدلا من أن تكون لبني إسرائيل فقط كما بين المسيح " عليه السلام " صراحة (متى ١٠ : ٦) ، يجعلها بولس عامة لكل البشر على اختلاف أجناسهم ، يقول بولس : " أم الله لليهود فقط ، أليس للأمم أيضا ، بلى للأمم أيضا " (١) ، ويقول : " إنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لي شهودا في أورشليم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض " (٢) * ، وبذلك يكون بولس

إنجيل متى أيضا على لسان المسيح " عليه السلام " : " الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم يخبر أيضا بما فعلته هذه تذكارا لها " (متى ٢٦ : ١٣) ٠ وهذه النصوص وأمثالها محمولة ـ إن صحت ـ على أنه بعد قتل استفانوس ، تشتت أغلب التلاميذ والتابعين ، واستمر التبشير المسيحي منحصرا في يهود الداخل والشتات ، وكان التلاميذ في قبولهم للأمميين ، إنما هم مجرد مستجيبين لمن استدعاهم أو أقبل إليهم ، وأنهم لم يكونوا بالبادئين ، وأن مرجع ذلك إلى رأيهم وليس إلى المسيح " عليه السلام " ٠ وحتى بعد أن أدخل بولس نفسه عنوة في زمرة التلاميذ وبدأ التبشير ، اتجه إلى اليهود مقتصرا على تبشيرهم وعاكفا على مجامعهم ومعابدهم ، ومستخدما عبارات العهد القديم في أحاديثه معهم ، واصطحب معه الرجل الصالح برنابا للتبشير بين اليهود ، ودليل ذلك : " ولما صارا في سلاميس ناديا بكلمة الله في مجامع اليهود " (أعمال ١٣ : ٥) ، وجاء في نفس الأصحاح عن برنابا وبولس : " وأتوا إلى أنطاكية بيسيدية ودخلوا المجمع يوم السبت وجلسوا " (أعمال ١٣ : ١٤) ، ويقول نفس السفر عن بولس وسيلا : " فاجتازا في أمفيبوليس وأبولونية وأتيا إلى تسالونيكي حيث كان مجمع اليهود ، فدخل بولس إليهم حسب عادته ، وكان يحاجهم ثلاث سبوت من الكتب " (أعمال ١٧ : ١ و ٢) ، وجاء في نفس السفر عن بولس : " وبعد هذا مضى بولس من أثينا وجاء إلى كورنثوس ٠٠٠ وكان يحاج في المجمع كل سبت " (أعمال ١٨ : ١ ـ ٤) ٠ والجديد في هذه النصوص أنها تؤكد على أن بولس ـ رسول التبشير بين الأمم ـ كان في بداية أمره يركز في دعوته على يهود الشتات ، ويحاورهم في مجامعهم ، ولم تتعد المسيحية نطاق الإسرائيليين إلا بعد مجمع أورشليم سنة ٥٠ م ، الذي أباح دخول غير المختونين (غير اليهود) إلى المسيحية ٠ انظر : حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٤٤ ٠ مفهوم التبشير (التنصير) بين النظرية والتطبيق : الدكتور محمد محمد كركور ، ١٣٧ هـ ـ ٢٠١٦ م ، ص ٥٣ ٠

(١) رومية ٣ : ٢٩ ٠

(٢) أعمال الرسل ١ : ٨ ٠

قد خرج برسالة المسيح " عليه السلام " عن أخص خصائصها ، وهي اختصاصها ببني إسرائيل ، الذين يدينون بشريعة الختان ، يقول بولس : " لأنه في المسيح يسوع ليس الختان ينفع شيئا ولا الغرلة بل الخليقة الجديدة " ([1]) ، ولذلك كانت رحلاته في الدعوة إلى آسيا وأوربا ، متجاوزا بذلك حدود المَواطن اليهودية ، حيث يقول : " لأن كلكم الذين اعتمدتم بالمسيح قد لبستم المسيح ، ليس يهودي ولا يوناني ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر وأنثى ، لأنكم جميعا واحد في المسيح يسوع " ([2]) ، كما قد اختص نفسه بمعرفة السر المكنون والمكتوم عن سواه من كل الخليقة ، وهو الإيمان بيسوع المسيح " عليه السلام " ، واحتكر كل النبوات بأمر ووحي من الله الأزلي ليكون رسولا لكل العالم بقوته وفائق قدرته ، وفي هذا يقول بولس : " وللقادر أن يثبتكم حسب إنجيلي والكرازة بيسوع المسيح حسب إعلان السر الذي كان مكنونا في الأزمنة الأزلية ، ولكن ظهر الآب وأعلم به جميع الأمم بالكتب النبوية حسب أمر الإله الأزلي لإطاعة الإيمان ، لله الحكيم وحده بيسوع المسيح له المجد وإلى الأبد " ([3]) .

وفي غفلة من الزمن يصبح بولس رسول الأمم ، وصاحب الدعوة العالمية ، حيث يقول : " العالم لي وأنا للعالم " ([4]) ، وطالما نادى وأذاع في رسائله ورحلاته أنه رسول المسيح " عليه السلام " (رومية ١ : ١ ، كورنثوس الأولى ١ : ١ ، غلاطية ١ : ١) ، بعدما سما بالمسيح " عليه السلام " إلى مرتبة الألوهية .

ج ـ رحلات بولس التبشيرية :

---

* يعني ب " أقصى الأرض " أرض فلسطين وحدها ، وأراد بذلك أن يشير إلى أرض الجليل التي هي أقصى أرض فلسطين مما يلي الأرض السورية ، كما أن انتشار اليهود في العالم كان يستدعي إرسال الرسل إليهم ، فالحديث عن مكان الانتشار وليس عن الأشخاص . انظر : مفهوم التبشير : الباحث ، ص ٥٢ و ٥٣ .

([1]) غلاطية ٦ : ١٥ .

([2]) غلاطية ٣ : ٢٧ و ٢٨ .

([3]) رومية ١٦ : ٢٥ ـ ٢٧ .

([4]) غلاطية ٦ : ١٤ .

ظهر بولس في فترة تقدر ببضع سنين عقب رحيل صاحب الرسالة ومعلمها الحقيقي والأوحد ، حيث جعل نفسه مبشِّرَها الأول ، وطبع عليها من فكره وفلسفته ما حوَّلها من مسيحية إلى صليبية ، وأخذ في التطواف في الأقاليم ينشئ الكنائس ، ويقوم بالدعاية ، ويلقي الخطب ، وينشئ الرسائل ، حتى كانت رسائله هي الرسائل التعليمية ، بما اشتملت عليه من مبادئ في الاعتقاد وبعض الشرائع العملية ٠

وكما دخل بولس المسيحية بغتة في وضح النهار . لرؤية نهارية . فإنه نقل التبشير لغير اليهود بنفس الطريقة في ظلام دامس لرؤية ليلية ، وهذا ما سجله سفر أعمال الرسل حيث جاء فيه : " وظهرت لبولس رؤيا في الليل رجل مكدوني قائم يطلب إليه ويقول اعبر إلى مكدونية [١] وأعنَّا ، فلما رأى الرؤيا للوقت طلبنا أن نخرج إلى مكدونية متحققين أن الرب قد دعانا لنبشرهم " [٢] ، ثم زار بولس مرة أخرى مكدونية ، وانطلق إلى أورشليم عاقدا العزم على الذهاب إلى رومية تطبيقا لرؤيا رآها ، يقول سفر الأعمال عن بولس : " وفي الليلة التالية وقف به الرب وقال ثق يا بولس لأنك كما شهدت بما لي في أورشليم هكذا ينبغي أن تشهد في رومية أيضا " [٣] ٠

ويبين نفس السفر أنه لما قاوم اليهود بولس وجدَّفوا عليه يئس منهم ، وانتقل للتبشير بين الأمم : " وإذا كانوا يقاومون ويُجدِّفون نفض ثيابه وقال لهم على رؤوسكم ، أنا بريء ، من الآن أذهب إلى الأمم " [٤] ، واتسعت دائرة تبشير بولس جغرافيا ، كما اتسعت

---

[١] مكدونية : كانت مملكة فيلبس والإسكندر (١ مك ١ : ١) ، وفي القرن المسيحي الأول كانت مقاطعة رومانية ٠ دخل بولس إلى أوربا عن طريقها خلال سفرته التبشيرية الثانية ، وأسس فيها كنائس (أع ١٦ : ١١ ٠٠٠ ، ٢٠ : ١ ٠٠٠ ، ١كو ٦ : ٥ ، ٢كو ١ : ١٦ ، ٢ : ١٣ ، ٧ : ٥) ٠ انظر : أطلس الكتاب المقدس ، ص ٢٤ و ٢٥ ٠

[٢] أعمال الرسل ١٦ : ٩ و ١٠ ٠

[٣] أعمال الرسل ٢٣ : ١١ ٠

[٤] أعمال الرسل ١٨ : ٦ ٠

جنسيا ، ووصل قطرها من أورشليم إلى روما (1) ، ولم يورد دليلا واحدا ولا كلمة واحدة تُنسب إلى عيسى "عليه السلام" عن عالمية المسيحية ، وإنما كان تدليله على هذه العالمية من كلامه هو ومن بنات أفكاره .

إن عالمية المسيحية كانت تمثل نقطة التحول في تاريخ هذه الديانة ، وذلك لأن فتّح باب هذه الديانة لجميع العناصر ألزم بولس أن يُدخل على ديانته تعليمات أخرى تزيل الهوة بين ديانات بني إسرائيل وأفكار الأمم المختلفة الذين فتح لهم باب المسيحية ، كالوثنيين والأوربيين واليونانيين وغيرهم ، ولهذا قال بولس بالتثليث وبنزول عيسى " عليه السلام " ليكفر بنفسه عن خطيئة البشر ، وبعدم ضرورة الختان ، وغير ذلك من العقائد والشعائر التي لها صلة بديانات هذه الأمم واتجاهاتها ، وبالتالي بشَّر بولس بمسيحية اختص بها ، تختلف تماما عن مسيحية المسيح " عليه السلام " ، وعلى خطى بولس سار التبشير المسيحي التقليدي ، أو بالأحرى التبشير الصليبي الذي لا يرى في المسيحية سوى الصلب وسفك الدم .

ولا يعتبر بولس المبشر المسيحي الأول فقط ، بل يعتبر واضع أسس التبشير المسيحي العالمي التقليدي أو التبشير الصليبي ، ولا يزال المبشرون في أيامنا هذه يستقون خططهم وترتيباتهم من معلمهم الأول بولس ، فهو بحق مؤسس علم التبشير ، وقد نجح في هذا المضمار أيَّما نجاح (2) . وها هي رحلات بولس التبشيرية :

---

(1) روما : الرواية التاريخية التي تناقلها مؤرخو الرومان القدامى ، تتلخص في أن مدينة روما قد تأسست سنة ٧٥٤ ق.م ، وقد تم ذلك عن طريق زواج " مارس " إله الحرب من الكاهنة " سيلفيا " ، التي أنجبت توأمين نتيجة ذلك الزواج " روميلوس " و " ديموس " ، وقد حملت المدينة اسم الأول منهما بعد قتله الآخر ، وعدد الملوك الذين حكموا مدينة روما بعد موت " روميلوس " ستة ملوك ، وانتهاء النظام الملكي كان سنة ٥٠٩ ق.م . انظر : شريعة الرومان : البيئة . المصدر . المآل : فتحي المرصفاوي ، دار النهضة العربية (القاهرة) ، ص ١٢ و ١٣ .

(2) انظر : حقيقة التبشير : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٤٠ و ٦٥ . محاضرات في النصرانية : الإمام محمد أبو زهرة ، ص ٦٨ . التبشير في العالم الإسلامي : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٤٥ ـ ٤٧ .

١ . رحلة التبشير الأولى : يذكر سفر أعمال الرسل (الأصحاح ١٣ وما بعده) جولات بولس على المدن ، وتبشيره اليونانيين وغيرهم بالمسيحية الجديدة التي جاء بها ٠ ولقد أقام بولس في مسقط رأسه " طرسوس " بعد انتقاله إلى المسيحية ثماني سنين ، ثم حدث اللقاء بينه وبين صديقه برنابا ، وأخذا يعلمان الدين في أنطاكية (١) مدة سنتين ٤٣ و ٤٤ م ، فاهتدى على أيديهما كثير من الناس ، ومن أنطاكية وجهتهما الكنيسة إلى قبرص (٢) بلدة برنابا ، فاستجاب لهما الكثير من اليهود القاطنين بهذه الجزيرة ، وكان ذلك في عام ٤٥ . ٤٧ م ٠ ولكن دعوتهما لم تنجح في الجزء الأخير من هذه الرحلة ، لأنهما أخذا يعظان " الأمم " وهم غير يهود ، مما أجرَّ عليهما غضب اليهود المستمسكين بدينهم ، فأوعزوا إلى عمال البلدية أن يُخرجوهما من المدينة (أعمال ١٤ : ٤ و ٥) ، وانتقلا بعد ذلك إلى عدة مدن ، ثم عادا إلى أنطاكية ، وواجهتهما نفس المشكلة ، حيث أن شيوخ الكنيسة من دمشق (٣) سمعوا أن بولس يبشر غير اليهود من

المسيحية : الدكتور أحمد شلبي ، ص ١٣١ ٠ التبشير بين النظرية والتطبيق : الدكتور مجدي فهيم ، ص ٥٤ و ٥٥ ٠ أديان ومذاهب معاصرة : الدكتور عبد العزيز تمام يوسف ، ص ٢١ ٠

(١) أنطاكية : مدينة في سورية ، تقع على الضفة اليسرى لنهر العاصي على بعد ٣٠ كم من شاطئ البحر المتوسط ، وتعتبر إحدى أهم المدن في تاريخ سورية حيث أنها كانت عاصمة سورية قبل الفتح الإسلامي في القرن السابع ، أسسها سلوقي الأول ، وكانت عاصمة المملكة السلوقية ، وفي القرن الأول أصبحت مركزا هاما للعمل المسيحي ٠ من هذا المركز انطلق بولس وبرنابا في سفرتهما التبشيرية الأولى (أع ١٣ : ١ ...) ، وهنا قاوم بولس بطرس (غل ١٢ : ١١ و ١٢) ٠ انظر : أطلس الكتاب المقدس ، ص ١٢ ٠ الموسوعة الحرة ٠

(٢) قبرص : جزيرة في البحر المتوسط ، دعيت "كتيم " في العهد القديم (اش ٢٣ : ١ و ١٢ ، إر ٢ : ١٠ ، حز ٢٧ : ٦ : دا ١١ : ٣ ، ١ مك ١ : ١ ، ٨ : ٥) ، وكانت وطن برنابا (أع ٤ : ٣٦) ، واتجه برنابا وبولس أولا إلى جزيرة قبرص في سفرتهما التبشيرية الأولى (أع ١٣ : ٤) ، وبعد أن انفصل بولس عن برنابا ذهب الأخير مع مرقس إلى قبرص (أع ١٥ : ٣٩) ٠ انظر : أطلس الكتاب المقدس ، ص ٢١ ٠

(٣) دمشق : دمشق، هي عاصمة الجمهورية العربية السورية، وهي أحد أقدم مدن العالم ، حيث تأسست منذ أحد عشر ألف عام تقريبًا، وأقدم مدينة عاصمة في العالم 0 أصبحت عاصمة منطقة سوريا منذ عام ٦٣٥ م

الأمم ، ويقبل المهتدين منهم ويعفيهم من الختان ، ولكن المبشر بولس رأى أن الدعوة لو اقتصرت على أرباب الختان ، لا يقبلها إلا عدد ضئيل محصور في جماعة اليهود ، ولا تلبث أن تتلاشى بعد قليل من الزمن ، بيد أن بولس يريد لدعوته البقاء والدوام ، ولا يتحقق ذلك إلا إذا قبلتها الأمم وقبلتهم الكنيسة أيضا .

٢ . رحلة التبشير الثانية : يُرجّح التاريخ أن القديس بولس قام برحلته التبشيرية الثانية عام ٥٠ م واستمرت إلى عام ٥٣ م تقريبا ، وكان يصطحب معه صديقه الداعية برنابا ، وحدث أن اختلفا أثناءها بسبب اصطحابهما مرقس الإنجيلي ، حيث رفض بولس اصطحابه ، لأنه لم يصحبهما في رحلة التبشير الأولى ، ورغب برنابا في اصطحابه لأنه ابن أخته ، وقيل إن الخلاف بينهما كان بسبب خروج بولس بالدعوة من المحلية إلى العالمية ، وكان برنابا يرى ضرورة انحصارها في بني إسرائيل ، وهنا افترقا ، واختفى برنابا في قبرص وطنه الأول ، وأغفل التاريخ ذكـره (أعمال الرسل ١٥ : ٢٦ . ٣٩) .

وانطلق بولس وحده يبشر في مدن آسيا الصغرى ، وبينما هو في " لسترة " [١] ضم إليه تلميذا يُدعى " تيموثاوس " [٢] ، وهو ابن امرأة يهودية وأبوه يوناني ، أحبه بولس حبا

• تُعرف أيضًا بأسماء عديدة منها *الشام* و*مدينة الياسمين*؛ وقد احتلت مكانة إقليمية بارزة على صعيد الفنون، والآداب، والسياسة؛ وحظيت باهتمام الأدباء والشعراء والرحالة ، ونُظم في وصفها العديد من النصوص الشعريّة والأدبيّة، منها ما كتبه ياقوت الحموي : " ما وصفت الجنة بشيء ، إلا وفي دمشق مثله " . انظر : الموسوعة الحرة .

[١] لسترة : مدينة كانت مستعمرة رومانية ، حيث شَفَى بولس المقعد من بطن أمه ، وكان قومُها على وشك أن يعبدوه لأجل ذلك ، (أع ١٤ : ٦ ـ ٢١ ، ٢ تيم ٣ : ١١) ، وقابل فيها بولس تيموثاوس لأول مرة (أع ١٦ : ١ و ٢) . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٨١٤ .

[٢] تيموثاوس : اسم يوناني معناه " عابد الله " ، وهو رفيق بولس ومساعده ، ويرجح أنه آمن على يد بولس ، وجعله بولس رفيقا له في أسفاره . رسالتا بولس الرسول إلى تيموثاوس هما الخامسة عشرة والسادسة عشرة من أسفار العهد الجديد ، وكُتبت الأولى بعد إطلاق سراح بولس من سجنه واستئناف عمله التبشيري، وكُتبت في مقدونية سنة ٦٤ أو ٦٥ م ، أما الرسالة الثانية فقد كُتبت من رومية بعد القبض على الرسول للمرة الثانية نحو سنة ٦٧ م . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ .

شديدا ، إذ وجد فيه طلبته ، وصحبه في هذه الرحلة ، وفي " ترواس " ([1]) تعرف بولس على " لوقا " الذي كان قد اعتنق اليهودية وهو من الأمم ٠ ثم أبحر بولس وتيموثاوس وثالث يُدعى " سيلا " ([2]) من " ترواس " إلى مكدونية ، ثم إلى " فليبي " (مدينة أوربية) ، وهي أول مرة تطأ قدمه أرضا أوربية ، ولكنه في هذه المدينة قُبض على بولس ورفيقيه ، وأُودعوا السجن ، ثم أُفرج عنهم بعدما عُرف أنهم رومانيون (أعمال ١٦ : ١١ ـ ٣٩) ٠ ومن فليبي انتقلوا إلى " تسالونيكي " ([3]) ، وظل بولس يخطب في مجمعها مجمعها اليهود ، ثلاث سبوت حتى استطاع أن يؤسس فيها كنيسة مسيحية ٠ وحين هبط في " أثينا " ([4]) وجد نفسه في قلب الديانة الوثنية ، وخطب جموعهم خطبة مطولة

([1]) ترواس : ميناء بحرية (أع ١٦ : ١١) ، فيها رأى بولس رجلا مقدونيا في رؤيا يدعوه لزيارة أوربا (أع ١٦ : ٨ ـ ١٠ ، ٢ كو ٢ : ١٢) ، وأقام فيها الرسول بولس أيضا أسبوعا حينما كان راجعا من سفرته الثالثة (أع ٢٠ : ٦) ، أسسها انتيجنوس أحد خلفاء الإسكندر ، وسماها انتجونا ، وسماها لسماخوس الإسكندرية ، وأضاف إليها ترواس تمييزا لها من إسكندرية مصر ، واسمها الآن اسكس ستامبول ٠ انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٢١٧ ٠

([2]) سيلا : اسم يوناني مأخوذ عن الأصل الآرامي لفظه " شاول " ومعناه " المسئول " ، وقد خدم مع بولس الرسول (٢ كو ١ : ١٩) ، وكان أحد أعضاء كنيسة أورشليم البارزين ، وكان مواطنا رومانيا (أع ١٦ : ٣٧) ، ورافق سيلا بولس في جزء من رحلته التبشيرية الثالثة (أع ١٥ : ١٨ ـ ٢٢) ، كما رافقه بعد انفصال برنابا عنه (أع ١٥ : ٤٠) ، وعندما ظهرت لهما رؤيا الرجل المقدوني الذي يطلب العون ذهبا إلى بلاد اليونان (أع ١٦ : ٩ ـ ١١) ، ويقول بطرس عن سيلا إنه أخ أمين (١ بطرس ٥ : ١٢) ٠ انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٤٩٦ و ٤٩٧ ٠

([3]) تسالونيكي : عاصمة مقاطعة مكدونية الرومانية ، زارها بولس (أع ١٧ : ١ ٠٠٠) ، وكانت موطن استرخس (أع ٢٧ : ٢) ، وذهب ديماس إليها عندما ترك بولس (٢ تي ٤ : ١٠) ، وكتب بولس رسالتين إلى الكنيسة فيها (١ تس ١ : ١ / ٢ تس ١ : ١) ٠ انظر : أطلس الكتاب المقدس ، ص ١٤ ٠

([4]) أثينا : عاصمة اليونان وأكبر مدنها ، ويعود اسم المدينة إلى أثينا إلهة الحكمة الإغريقية ، وتقع أثينا في جنوب اليونان ، يبلغ تاريخ المدينة حوالي ٥٠٠٠ سنة ، وكانت لم تزل عاصمة العالم الثقافية في القرن المسيحي الأول ، كرز فيها بولس (أع ١٧ : ١٩ ٠٠٠) ٠ انظر : أطلس الكتاب المقدس ، ص ١٠ ٠ الموسوعة الحرة ٠

، حاول فيها أن يوفق بين المسيحية والعقائد الوثنية التي صنعتها الفلسفة اليونانية ، وباءت محاولته بالفشل ، ولم يلق منهم إلا عدم الاهتمام به أو السخرية من قوله ، فغادر " أثينا " إلى كورنثوس (أعمال ١٨ : ١) التي أقام بها سنة ونصف بين عامي ٥١ و ٥٢ م ، وكان يخطب في جموعها كل سبت ، ويحدثنا سفر الأعمال بأن بولس كسب مؤمنين كثيرين من غير اليهود من أهل كورنثة ، ولعل السبب في قبولهم لدعوته سريعا أنهم مزجوها بعقائدهم ، ووافقهم عليها بولس ، وبعد هذا الكسب الطيب في كورنثة انتقل بولس منها إلى أورشليم سنة ٥٣ م ليسلم على الإخوة هناك (أعمال ١٨ : ١ ـ ٢١) .

٣ ـ رحلة التبشير الثالثة : لم يمكث بولس في أورشليم وقتا كثيرا حتى بدأ سفره للمرة الثالثة من أجل التبشير بالمسيحية ، وزار الجماعات المسيحية في أنطاكية وآسيا الصغرى ، وأخذ يشد عزم تلاميذه بثقته القوية وحماسه الملهب ، ومكث في أفسس [١] مدة عامين ثبَّت تلاميذه أمام الخارجين على دعوته ، ورحل عن أفسس إلى مقدونية ، وأقام في فليبي وتسالونيكي وبيرية [٢] عدة أشهر بين الجماعات التي أعدَّها في هذه البلاد ، ولكنه سمع أثناء ذلك بشقاق عظيم بين جماعة في كورنثة ، فأرسل إليهم عدة رسائل

([١]) أفسس : كلمة يونانية معناها " المرغوبة " ، وهي عاصمة المقاطعة الرومانية ، وكانت ميناء بحريا ومركزا دينيا مهما في العصور القديمة ، احتلها الإغريق في القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، ووقعت تحت حكم الرومان سنة ١٣٣ ق . م ، وقد نادى بولس برسالة المسيح في المجمع اليهودي في أفسس أثناء رحلته التبشيرية الثانية ، وأقام فيها بولس أثناء رحلته التبشيرية الثالثة مدة لا تقل عن سنتين وثلاثة شهور ينادي في المجمع ، وأصبحت أفسس فيما بعد مركزا مهما للمسيحية ، وقد التأم هناك المجمع الثالث المسكوني في سنة ٤٣١ م . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٩٢ و ٩٣ .

([٢]) بيريَّة : مدينة من أعمال مكدونية ، واقعة على بعد خمسين ميلا من تسالونيكي ، وقد نادى بولس فيها بالإنجيل في رحلته التبشيرية الأولى (أع ١٧ : ١٠ ـ ١٣) ، وهي تدعى الآن " فريّة " . اسم قديم لمدينة حلب الحديثة ، وهي واقعة في الإقليم السوري (٢ مكا ١٣ : ٤) . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٢٠٧ .

يعنفهم على فسادهم وشقائهم ، ولكن لم تطاوعه نفسه حتى انتقل إليهم بنفسه سنة ٥٦ م ، ليدافع بشخصه عن نفسه أمام الذين يتهمونه هناك ويذمُّونه .

وسافر بعد ذلك إلى أورشليم ، وكأنه قد أحس بأن دعوته قد فضَّت من حوله كل منصف وصديق ، فكان يقـــول : " والآن ها أنا أذهب إلى أورشليم مقيدا بالروح لا أعلم ماذا يصادفني هناك ، غير أن الروح القدس يشهد في كل مدينة قائلا إن وُثُقا وشدائد تنتظرني " (١) (٢) .

ويلاحظ على تلك الرحلات أن برنابا صحب بولس لما كان يُركِّز في دعوته على اليهود في مجامعهم ، وفارقه لما بدأ يوجهها إلى غير اليهود من الأمم ، ليُكتَب لها الانتشار والبقاء ، وأن بولس أراد أن يوفق بين مسيحيته وأديان تلك الأمم ، ليكون انتقالهم إليها سهلا ، فكانت مسيحيةً وثنيةً بولسيةً لا يعرفها المسيح ولا حواريوه ، ولأن ديانته كانت محرَّفة وملفقة ، كانت تقابله تحديات وانفجارات وانشقاقات في كل مكان يدعو فيه أو يغادره ويذهب إلى غيره .

خامسا ـ قسطنطين الكبير والمسيحية :

كما كان لبولس دور كبير في تحريف المسيحية ، والخروج بها من المحلية إلى العالمية ، كان لقسطنطين دور كبير في هذا التحريف ، وفرض العقيدة التي يراها بقوة السلطان ، وكما اضطهد اليهود المسيحية ، وجاء بولس ـ وهو أحد كبار المضطهِدين لها ـ فادعى الدخول فيها إثر رؤية رآها ، لتحقيق ما لم يحققه بقوة السيف ، كذلك نالت المسيحية صنوف الاضطهاد على يد أباطرة الرومان ، ثم جاء قسطنطين ـ وهو أحد أباطرة الرومان الذين يشار إليه بالبنان ـ ليتبنى المسيحية ويقرر التسامح معها ، وتكون الدين الرسمي للدولة ، بل يعلن مسيحيته ـ المشكوك فيها ـ إثر رؤية رآها ، فعل كل ذلك

---

(١) أعمال الرسل ٢٠ :٢٢ و٢٣ .

(٢) انظر : بولس والمسيحية : محمد أبو الغيط ، ص ٦٢ ـ ٧٤ .

لتحقيق أغراض خاصة به ، ليست المسيحية واحدة منها . فمن تكون هذه الشخصية ؟ وما موقفها من المسيحية ؟ هذا ما سيتم التعرف عليه من خلال :

أ . تعريفٌ بقسطنطين :

هو قسطنطين بن قسطنطينوس كلوروس ، أول ملوك الطبقة الثانية ، ملك اثنتين وثلاثين سنة وثلاثة أشهر ، وهو الذي أظهر المسيحية بعد خفاء ، وجاهر بها أتباعها بعد استتار ، حيث أراد أن يستنصر بالمسيحيين في حربه ضد خصومه ، فأكسب المسيحية قوة أثَّرت في انتشارها كما أثرت على تعاليمها .

مات الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٣٧ م ، وترك ثلاثة أبناء ، ورثوا الإمبراطورية وحكموها معا : فتولى ابنه الإمبراطور قسطنطين الثاني الغرب ، وتولى الابن الثاني وهو قسطنديوس حكم الشرق ، وتولى الثالث وهو قسطنس حكم البرية ، وجزءا من أفريقيا ، ولقد كان قسطنديوس الذي حكم الشرق آريوسيا ، وأما قسطنطين الثاني وقسطنس فكانا أرثوذكسيَّين ([1]) . وبعد أن تولى هؤلاء الأباطرة الثلاثة زمام الحكم في الإمبراطورية أصدروا قرارا بإعادة الأساقفة المنفيين ، فقسطنطين الثاني كان صاحب المبادرة في إطلاق سراح الأساقفة المنفيين ، لإثارة الشغب والاضطراب في الأجزاء التي كان يحكمها أخوه قسطنديوس في الشرق ([2]) .

([1]) الأرثوذكس : هم النصارى الشرقيون ، وتسمى كنيستهم كنيسة الروم الأرثوذكسية أو الكنيسة الشرقية أو اليونانية ، وقد فُصلت عن الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٠٥٤ م ، وهي الآن مؤلفة من عدة كنائس مستقلة . يؤمنون بألوهية الآب والابن وأنهما من جوهر واحد ومتساويان في الأزلية ، وأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة ، وأن الروح القدس منبثق من الآب وحده ، وأن السيدة مريم العذراء والدة الإله ، ويُحرِّمون الطلاق إلا في حالة الزنا . انظر : قاموس المذاهب والأديان: حسين علي حمد ، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م ، دار الجيل (بيروت) ، ص ١٦٥ و ١٦٦ . الموسوعة الميسرة : مانع بن حماد ، ج ٢ ص ٥٩٣ ـ ٦٠٥ . دراسات في الأديان والنحل : الدكتور أحمد أحمد غلوش ، الطبعة الثانية ، ١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧ م ، مؤسسة الرسالة (القاهرة) ، ص ٦٨٩ و ٦٩٠ .

([2]) انظر : التبشير في العالم الإسلامي : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٥٧ . تاريخ الفكر المسيحي يسوع المسيح عبر الأجيال : حنا جرجس الخضري ، دار الثقافة (القاهرة) ، المجلد الأول ، ص ٦٥٠ .

ب . اضطهاد الرومان للمسيحية وتسامح قسطنطين معها :

كان المسيحيون في الإمبراطورية الرومانية موضع اضطهادات عنيفة وقاسية في أوقات كثيرة وأماكن مختلفة ، فمنذ ظهور المسيحية مرت الكنيسة بأوقات عاصفة ، إلى أن جاء الإمبراطور الروماني قسطنطين فأصدر منشـور " ميلان " (أو ميلانو حاليا ، وهي مدينة في شمال إيطاليا شهيرة بقبة كاتدرائية) سنة ٣١٣ م ، بموافقة " ليكنيوس " (إمبراطور روماني في القسم الشرقي ٣٠٧ . ٣٢٤ م ، اتفق مع قسطنطين على سياسة التسامح مع المسيحيين ، ثم تراجع عنها ، فحاربه قسطنطين وقتله) ، وهذا المنشور يمنح الحرية الدينية لجميع رعايا الإمبراطورية ، كما قرر بأن تُدفع التعويضات للمسيحيين عن جميع أملاكهم المفقودة ، وأن تُبنى الكنائس للمسيحيين من جديد وتُعمَّر .

وهنا بدأ المسيحيون يتنفسون الصعداء ، ويشعرون بالحرية التي كانوا يشتاقون إليها منذ زمن بعيد ، ومع أن الكنيسة . في هذا الوقت . لم تصبح ديانة الدولة . كما يظن البعض خطأ . ولكنها كانت تتمتع بامتيازات عظيمة جدا ، ويكفي أنها صارت مساوية في الحقوق لباقي الديانات الأخرى الموجودة في الإمبراطورية ، وأصبحت فيما بعد كنيسة الدولة ، وهنا تتحد القوتان العظيمتان : القوة الروحية والقوة الزمنية ، أو الله وقيصر .

هذا المنشور ورقة رابحة قدمها قسطنطين ليظفر بالحكم وحده بلا منازع ، فبعد عام من صدوره قرر مهاجمة إمبراطور الشرق ، ثم تقابلا في معركة متكافئة ، رجحت فيها كفة إمبراطور الغرب بعض الشيء ، فاضطرا سويا إلى اتفاق وُضعت الحدود فيه بينهما ، فكان ل " ليكنيوس " جزء من أوربا ، بينما ظفر قسطنطين بجُلِّ أوربا ، وظل يعدُّ الجيش لمعركة فاصلة مع خصمه ، مهيئا أسباب النصر من تنظيم للإدارة ، وتدريب للجيش وتسليحه ، بالإضافة إلى تحبُّبه للمسيحيين لكسب ودهم ، حتى إذا وقعت الواقعة جعلها حربا بين المسيحية والوثنية ، وفي سنة ٣٢٣ م لقي الإمبراطور الشرقي شر هزيمة ، وحكم قسطنطين الإمبراطورية الموحدة على مدى أربعة عشر عاما ، حقق في هذه الفترة أمورا كثيرة ، أهمها :

تأكيد قرار " ميلان " بقرار تسامح نهائي جديد سنة ٣٢٤ م ،كان له أثره البالغ على المسيحيين والمسيحية ٠ الاعتراف بالمسيحية ضمن الديانات المعترف بها في الإمبراطورية ، وهذا ما حدث في مؤتمر نيقية سنة ٣٢٥ م ٠ نقل عاصمة الإمبراطورية من روما في الغرب إلى القسطنطينية ([1]) في الشرق سنة ٣٣٠ م ، وظل يحكم فيها إمبراطوريته حتى وافته المنية سنة ٣٣٧ م ٠ بدأت المسيحية في الحقبة الأخيرة من حكم " قسطنطين " تأخذ في الانتشار في ربوع الإمبراطورية بقوة السلطان السياسي في الظاهر مرة وفي الخفاء مرة أخرى ، ولكن للدوافع المادية أثرها في دخول كثير من الوثنيين في المسيحية ، رغبة في العطاءات المالية التي كانت تغدقها السلطة عليهم ٠ وإذا كان الربع الأول من القرن الرابع الميلادي شهد ضم المسيحية ضمن الملل والنحل المعترف بها في روما ، فإنه لم يكد ينتهي هذا القرن حتى صارت الديانة الرسمية للإمبراطورية على يد الإمبراطور "ثيودوسيوس الكبير" (٣٧٨ ـ ٣٩٥ م) ٠ وظلت المسيحية سائدة في الدولة الرومانية ، ومتغلغلة في الدول الغربية ، حتى جاء الإسلام بنوره وحدث اللقاء بين المسيحيين والمسلمين بأرض الحبشة في القرن السابع الميلادي ([2]) ٠ وهكذا تحولت المسيحية من

([1]) القسطنطينية : كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية خلال الفترة من 335 إلى 395 م ، وعاصمة الدولة البيزنطية من 395 إلى 1453 م حين سقطت على يد العثمانيين ودخلها محمد الفاتح ، وأطلق عليها إسلامبول أو الآستانة .وبدخوله أصبحت المدينة عاصمة السلطنة العثمانية. وغُيّر اسمها في عام 1930 إلى إسطنبول ضمن إصلاحات أتاتورك القومية ٠

تأسست المدينة عام 658 ق.م ، وفي عام 335 للميلاد جعلها الإمبراطور قسطنطين الأول عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية(الإمبراطورية البيزنطية) ، وأصبح يطلق عليها القسطنطينية نسبة للإمبراطور قسطنطين الأول مؤسس الإمبراطورية . أصبحت المدينة مركز المسيحية الشرقية ، ومركزا حضاريا عالميا، وأضحت أعظم مدن العالم في ذلك العصر ٠ انظر : الموسوعة الحرة ٠

([2]) انظر : تاريخ الفكر المسيحي : حنا الخضري ، ص ٦١٧ و ٦١٨ ٠التبشير في العالم الإسلامي : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٥٧ ـ ٥٩ ٠

ديانة مضطهَدة محظورة ، يُسام أهلها سوء العذاب ، إلى ديانة رسمية محظوظة تنتشر في كل مكان بقوة السلطان ، ويُفتح لأتباعها الأبواب .

ج ـ تحول قسطنطين إلى المسيحية وسببه :

يتحدث البابا يوسابيوس القيصري ([1]) عن قصة تحول الإمبراطور قسطنطين المفاجئ إلى المسيحية مع بقائه على الوثنية ، فيقول : إن من العار عليه ـ أي البابا ـ أن لا يحدِّث عن إمبراطور فاق الجميع في محبته للـــه " محبوب الرب " الذي اختارته العناية الإلهية ليُقرَّ السلام على الأرض ، ولم يكن لرجل هذا شأنه أن يهتدي إلى المسيحية على لسان قس مسيحي أو مبشِّر .

ويقول مؤلف " تاريخ الكنيسة القبطية " عن قسطنطين : سار إلى حرب عدوه بعدد قليل من الجند ، لكنه لمَّا رأى كثرة جنود عدوه تردد في الأمر ، وبينما هو متحير رأى هو وكثير من عساكره شكل صليب على دائرة كوكب الشمس مكتوبٍ عليه بالرومانية " بهذا تَغْلب " ، ثم رأى في المنام أيضا حبرا من أحبار المسيحيين يأمره أن يتخذ صورة الصليب شعارَ مُلكه على سلاح جنوده وأعلامه ، فتقوَّت عزيمته ، وأمر فجعلوا شعار الصليب على جميع الأسلحة والرايات في المملكة الرومانية . وقد كان شعار القياصرة قبل هذا عبارة عن صورة صنمية ، فاتخذ قسطنطين لنفسه شعارا مطرزا بالقصب ومكلَّلا بالجواهر على شكل صليب ، ورقَم عليه اسم المسيح بالحروف الرومانية ، وصوَّر المسيح متوجا بتاج الذهب ، وأمر جميع جنوده أن يرسم كل منهم صورة المسيح على كنانته وسلاحه ، ففعلوا جميعا ، وتقدم لمحاربة خصمه ، وانتصر عليه .

([1]) يوسابيوس القيصري (٢٦٣ ـ ٣٣٩ م) : أصبح أسقف القيصرية في ٣١٤م ، وكثيرا ما يشار إليه أنه " أبو التاريخ الكنسي " بسبب عمله في تسجيل تاريخ الكنيسة المسيحية في وقت مبكر، لا سيما وقائع التاريخ الكنسي . تأثر يوسابيوس القيصرى بآريوس وكان هذا واضحا في كتاباته عن لاهوت يسوع في تاريخ الكنيسة ، وترأس مجمعا في صور سنة ٣٣٥ م . انظر : الموسوعة الحرة .

ويقول صاحب كتاب " الدولة والكنيسة " : لم يكن قسطنطين في رأي مؤرخي الكنيسة يهتدي إلى المسيحية على لسان بشر ، إذاً لغدا كأحدهم ، ولكنهم جعلوا السماء داعيته في يقظته ، ويسوع المسيح مبشرَه في نومه ، والصليب شارته ، وخدام الرب مشاعل جنده ، والرب يبارك خطاه . كان ذلك في سنة ٣١٢ م ، وقسطنطين يزحف بقواته إلى روما ، وإذا بهالة تضيق كبد السماء ، تعانق صليبا ، خُطَّ تحته بأحرف من نور " بهذا ستنتصر " ، فعقدت لسانَه وجيشَه الدهشة ، فلما أخذته سنة من النوم تبدَّى له مسيح الرب والعلامة التي رآها بيمناه ، يأمره أن يتخذها شعارا له ، وأن يجعل منها حارسا أمينا في معاركه الآتية ، وأسرع قسطنطين في اليوم التالي فاستدعى الصُّناع ، وأمرهم أن يصنعوها بعد أن راح يصفها لهم بدقة ، وأوصاهم أن تكون من الذهب والأحجار الكريمة لتوضع على رأس كل جندي من جيشه ، وما لبث قسطنطين أن دعا إليه حاملي أسرار الديانة المقدسة ليخبروه عما رأى ، فأعطوه صفته وأنه الرب ، الابن الوحيد المولود من الأب الواحد ، وأن ما رآه هو علامة الخلود ، فوطَّن نفسه على قراءة الكتاب المقدس (١) ، واتخذ له من قساوسة الرب مستشارين (٢) .

تلك هي قصة تحول قسطنطين المفاجئ إلى المسيحية ، كما يرويها مؤرخو الكنيسة ، وهي قصة تذكرنا برؤيا تحول بولس إلى المسيحية ، وتحوم حولها الشبهات والتساؤلات حول مدى قناعة قسطنطين بهذه الديانة ، وهل دخل فيها أو آمن بها إيمانا حقيقيا ؟ وما الدافع الحقيقي وراء هذا التحول ؟

---

(١) الكتاب المقدس : هو مجموع كتب العهد القديم والعهد الجديد ، الموحاة من الله ـ حسب اعتقاد أصحابها ـ والمتعلقة بخلق العالم وفدائه وتقديسه ، والنصائح الدينية والأدبية التي تناسب البشر ، ويبلغ عدد الكُتَّاب الملهمين الذين كتبوا الكتاب المقدس أربعين كاتبا ، وهم من جميع طبقات البشر ، واستغرقت مدة كتابتهم ألفا وستمائة سنة ، وكان جميع هؤلاء الكتاب من الأمة اليهودية ما عدا لوقا كاتب الإنجيل ، إذ يُظن أنه كان أمميًّا من أنطاكية . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٧٦٢ .

(٢) انظر : فلسفة التبشير أو إفلاس الكنيسة : الدكتور نوح الغزالي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م ، ص ١٣٩ ـ ١٤١ . تاريخ الفكر المسيحي : حنا الخضري ، ص ٦١٨ .

الواقع أن مسيحية الإمبراطور قسطنطين كانت مسيحية مبهمة وغامضة ومشكوكا فيها ، فإنه لم يقبل المعمودية ([1]) إلا في اللحظات الأخيرة وهو على فراش الموت ، كذلك ظل طوال حياته محتفظا بلقبه الوثني ، فهو الكاهن الأعظم ، وأسرته كانت تدين بالولاء التقليدي لإله الشمس ، ولقد جاءت الرؤية الشهيرة للصليب من الشمس ، وهو في طريقه إلى رومة ، وواصلت الشمس ظهورها على ما سكَّه من نقود خلال عشرة أعوام ، وعلى قوس النصر الذي أقامه في رومة ، ويحمل تمثالُه المقام في القسطنطينية التاجَ المشع لإله الشمس ، مصنوعا . كما اعتقد هو نفسه . من مسامير الصليب الحقيقية ، لقد كان إلهه إلها للقوة ، لكنه أبدا لم يكن إلها للحب ، ومعنى ذلك أن الشمس لم تُهزم هزيمة كاملة ، وأن قسطنطين يؤكد وثنيته في الباطن ، بل في الظاهر أيضا ، وكونه جعل نفسه حامي حمى المسيحيين لا المسيحية ، وأبدى ميلا للمسيحيين ، إنما هو في الواقع سياسة اتخذها لتحقيق مآربه ، وقبوله زعماءَ الكنيسة إنما هو نوع من تبادل المنافع ([2]) .

إن الثلاثمائة عام التي قضتها الإمبراطورية في اضطهاد المسيحية ، وما صاحبها من اضطرابات وقلاقل في الداخل ، وهجمات وهزائم من الخارج ، كانت كافية في أن تفكر في حلٍّ آخر لتلك الديانة الغريبة غير العنف والقسوة ، كما أن الديانة المسيحية

([1]) المعمودية : طقس الغسل بالماء رمزا للنقاوة والانخراط في سلك طائفة ما ، وقد عرف اليهود هذه العادة واستعملوها (خر ٢٩ : ٤ ، ٣٠ : ٢٠ ، ٤٠ : ١٢ ، لا ١٦ : ٢٦ ، ١٧ : ١٥ ، ٢٢ : ٤ ، عد ١٩ : ٨) ، ولما جاء يسوع تبنَّى هذا الطقس وجعله فريضة في الكنيسة المسيحية (مت ٢٨ : ١٩ ، مر ١٦ : ١٦) ، إذ أنه جعل التعميد بالماء باسم الثالوث الأقدس علامة على التطهير من الخطيئة والنجاسة وعلى الانتساب رسميا إلى كنيسة المسيح ، أي أن المعمودية في العهد الجديد تشبه الختان في العهد القديم ، وكلاهما علامة على العهد . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٦٣٧ .

([2]) انظر : معتقدات يونانية ورومانية : كامل سعفان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٩ م ، دار الندى (القاهرة) ، ص ١٧٢ . تاريخ الفكر المسيحي : حنا الخضري ، ص ٦٥٠ . محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٥٩ .

نفسها لم تعد تحتمل المزيد من حياة التعذيب والتقتيل ، وتطلَّع كلاهما إلى حل ، فالدولة باتت في حاجة ماسة إلى ديانة تُوحِّد شعوبها المختلفة ، والمسيحية هي الديانة الوحيدة المرشحة لهذا الأمر .

لقد ابتأس الإمبراطور حينما رأى التفكك والانحلال يسري في إمبراطوريته المترامية الأطراف ، وأخذ يفكر فيما يمكن أن يربط هذه الأشلاء التي توشك أن تتداعى ، ونظر في الأديان الموجودة لا للهداية والرشد ، أو النجاة في العالم الأخروي ، وإنما ليرى أيها أشد تعصبا واستعدادا للتنكيل بالمخالف ، فرأى في المسيحية تعصبا لا يوجد في غيرها من الأديان التي كانت منتشرة إذ ذاك في روما ، ورأى أن هذا التعصب نفسه هو الذي سيربط الإمبراطورية برباط من حديد ، ويقاوم عوامل التفكك التي تسري في شرايين الإمبراطورية ، فاتخذها دينا رسميا للدولة من أجل هذا السبب .

يضاف إلى ما سبق أن المسيحية قد اقتربت من الوثنية في عصر قسطنطين ، ولأنها الجماعة الوحيدة المنظَّمة المتماسكة من بين وثنيات المجتمع ، يقول فيشر (المؤرخ الإنجليزي) : " لم يغب عن بصيرة إمبراطور حصيف مثل قسطنطين ، أنَّ اتخاذه أولياء من فئة قليلة من الناس يحدوها النظام ، ويهديها الإيمان الراسخ ، وتسندها كتب مقدسة وعقيدة واضحة ، أجدى عليه من فئة كبيرة ذات عقائد شتى " .

ويقول " ول ديورانت " ([١]) : " أتباع هذا الدين كانوا لا يزالون قلة في الدولة ، ولكنهم كانوا بالقياس إلى غيرهم قلة متحدة مستبسلة قوية ، على حين أن الأغلبية الوثنية كانت

([١]) ول ديورانت (١٨٨٥ . ١٩٨١ م) : ويليام جيمس ديورانت، فيلسوف، مؤرخ وكاتب أمريكي ، من أشهر مؤلفاته كتاب قصة الحضارة ، والذي شاركته زوجته أريل ديورانت في تأليفه. تلقى تعليما كنسيا ، ونال درجة الدكتوراه من جامعة كولمبيا سنة ١٩١٧، وأخذ يعلِّم الفلسفة في تلك الجامعة ، وفي سنة ١٩١٤ م بدأ يلقي في الكنيسة المسيحية بنيويورك تلك المحاضرات في الفلسفة والأدب التي أعدته لإخراج كتابيه" قصة الفلسفة "و "قصة الحضارة"؛ وفي الجزء (٣٩) وَعَدَ بأن يُصدر كتاباً مستقلاً عن (عظات التاريخ)، وقد وفَّى بذلك وترجم الكتاب الدكتور علي شلش، وله كتاب بعنوان (تفسير الحياة) وآخر بعنوان (سيرة حياتنا) ،

منقسمة إلى عدة شيع دينية ، وكان من بينها عدد كبير لا نفوذ له في الدولة " .
ويقول : " لقد أُعجب قسطنطين بجودة نظام المسيحيين وطاعتهم لرؤسائهم الدينيين ... ولقد تعلَّم المسيحيون على يد رؤسائهم واجب الخضوع للسلطات المدنية ، وكان قسطنطين يأمل أن يكون حاكما مطلق السلطان ... وقد بدا له أن النظام الكهنوتي وسلطان الكنيسة الدنيوي ، يقيمان نظام الملكية ، ولعل هذا النظام بما فيه من أساقفة وقساوسة (١) يصبح أداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها " (٢) .

إن قسطنطين هو رجل الأقدار الذي تولى مهمة المصالحة بين المسيحية والوثنية ، بتعديل بسيط قرب المسيحية من الوثنية ، والإيمان الغامض بالله عند قسطنطين يجمع بمهارة بين متناقضات عبادة الشمس والمسيحية ، فهو لم يتخلَّ قط عن عبادته لإله الشمس الذي لا يقهر ، وفي سنة ٣٢١ م قرر جعل يوم الأحد عيدا أسبوعيا ، ولم يُدع هذا اليوم أبدا بيوم السيد ، بل أسماه يوم الشمس ، لكي لا يضايق مسامع رعيته الوثنية ، وليؤكد قدسيته للشمس ، وهي محاولة ولا شك للتوفيق بين الوثنية والمسيحية ، لتحقيق مصلحة الدولة ووحدتها .

زد على ذلك أن الوثنية بقيت على حالها تمارَس بحرية تامة في أنحاء الإمبراطورية ، ولم يصدر من قسطنطين مرسوم بتحريم عبادة الأرباب الوثنية ، أو يوقع بالوثنيين من أجل ديانتهم لونا من الاضطهاد كذلك الذي عاناه المسيحيون على عهد الأباطرة الأسلاف ،

وعند نهاية حياته أنجز كتابه الأخير (أبطال من التاريخ) ، ومات عام ١٩٨١م وهو في السادسة والتسعين من العمر . انظر : الموسوعة الحرة .

(١) القسيس : كلمة يونانية بمعنى شيخ ، وهي معربة من الكلمة السريانية فشيشو ، ويبدو أن أصل نشأتها يرجع إلى مجلس القدمـــاء" سانهديران " في المعبد اليهودي ، وجمعها قسيسون وقساوسة ، والقسيس رئيس النصارى في العالم ، والمفتي في الدين ، ومقيم الصلوات ، ومرتبته بين الأسقف والشماس ، وقد ورد ذكر القسيسين مرة واحدة في القرآن الكريم . انظر : الموسوعة الميسرة : مانع بن حماد ، ج ٢ ص ١١٢٥ .

(٢) انظر : أوربا والإسلام : الدكتور عبد الحليم محمود ، ص ٣٤ و ٣٥ . فلسفة التبشير : الدكتور نوح الغزالي ، ص ١٣٤ و ١٣٦ و ١٣٧ .

أو المسيحيون الذين تولت الكنيسة اضطهادهم بعد انتصارها ، وقد اشتمَّت فيهم رائحة التوحيد ، بل هو نفسه الذي أصدر مراسيم ضد بعض الفرق المسيحية التي رأى فيها مخالفة لمذهب الكنيسة التي ناصرها ، وذلك يدل على أن الإمبراطور كان يهدف من عمله هذا وحدة الدولة ، والقضاء على شقاقها ، لا حبا في المسيحية لذاتها .

ولم يكن اتخاذه جانب المسيحية سنة ٣١٢ م يعني أنه كرَّس نفسه لهذه العقيدة وحدها محطما كل تقاليد الوثنية ، وأنه أصبح مسيحيا في إحساسه على النحو الذي سيصبح عليه خلفاؤه من بعده ، فقد سمح بممارسة الطقوس الوثنية بل وشارك في بعضها أحيانا ، وخاصة ما يتعلق بإله الشمس . والجانب الخلقي لدى قسطنطين يؤكد تعارضه مع الدين الذي زعمه ، فهو الذي قام بإلقاء الأسرى من الجرمان للوحوش الضارية بالملعب العام لتسلية النظارة ، وهو الذي قتل زوجة ابنه ، ولكن سرعان ما اختفت تلك الجرائم تحت ستار الأعمال المجيدة التي جعلته الحواري الثالث عشر .

ويعود " ول ديورانت " ليضع النقاط على الحروف بشأن ذلك التحول الخطير عند قسطنطين ، فيقول : ترى هل كان قسطنطين حين تحوَّل إلى المسيحية مخلصا في عمله هذا ؟ وهل أقدم عليه عن عقيدة دينية ؟ أم كان هذا العمل حركة بارعة أملتها عليه حكمته السياسية ؟ أكبر الظن أن الرأي الأخير هو الصواب . لقد أحاط قسطنطين نفسه في بلاطه بعدد من العلماء والفلاسفة الوثنيين ، وقلما كان بعد تحوله إلى الدين الجديد يخضع لما تتطلبه العبادة المسيحية من شعائر وطقوس ، ولم يكن يتردد في القضاء على الانشقاق محافظة على وحدة الإمبراطورية ، وكان يعامل الأساقفة على أنهم أعوانه السياسيون ، يستدعيهم إليه ويرأس مجالسهم ، ويتعهد بتنفيذ ما تُقرُّه أغلبيتهم ، ولو أنه كان مسيحيا حقا لكان مسيحيا أولا وحاكما سياسيا بعدئذ ، ولكن الآية انعكست ، فكانت المسيحية وسيلة لا غاية .

وتقول صاحبة " المسيحية معركة متواصلة " : لا نستطيع أن نجزم بأن قسطنطين إنما صار مسيحيا حقيقيا عن عقيدة وإيمان ، وإنما وقف إلى جانب المسيحية هذه الوقفة الخالدة اعتقادا منه بأنه ربما وجد في المسيحية القوة العظيمة التي تُمكِّنه من توحيد

الإمبراطورية الرومانية ٠ ويقول " فيشر " : يبدو أن الغرض الذي هدف إليه قسطنطين بميله إلى جانب المسيحية ظل غير واضح للعيان ، وذلك حتى انتصاره المبين في وقعة " جسر ملفيان سنة ٣١٢ م " ، إذ بات الإمبراطور يؤمن بالمسيح ويؤمن بإله الشمس ، فحبَا المسيحيين بكثير من التسامح ، على حين احتفظ لنفسه بمنصب الكاهن الأعظم ، وهو المنصب الإمبراطوري في الديانة الرومانية الوثنية ، ثم إن العُملة في أيام قسطنطين ضُربت وعلى وجه منها علامة الصليب ، وعلى الوجه الآخر شعار عبادة الشمس ([1]) ٠

فقسطنطين لم يكن مسيحيا حقا ، ولم يتخل عن وثنيته يوما ما ، وإنما أوقف اضطهاد المسيحيين ، وأعطاهم حرية التدين ، والتعويضات اللازمة ، وعُني بكنائسهم ، وجعل من قساوستهم مستشارين ، ومن ديانتهم الدين الرسمي للدولة ، فعل كلَّ ذلك لا حبا في المسيحية واعتناقا حقيقيا لها ، ولا كرها وتخليا عن الوثنية التي ظل يمارس طقوسها طوال حياته ، وإنما لتحقيق غرضه وحلمه الخاص به في تكوين وحكم إمبراطورية موحدة مترامية الأطراف ، لا مكان فيها لانقسام أو شقاق ، ولم يَجِدْ في أديان إمبراطوريته دينا يحقق له هذا الهدف إلا المسيحية ، فتحول إليها بالصورة السابقة ، وكان تحوله دنيويا لا دينيا ٠

د ـ ضياع المسيحية بين الخوف من السلطة والغرور بها :

يبين صاحب كتاب " فلسفة التبشير " أن المسيحية ضاعت لوقوعها بين شقي رحى الخوف من السلطة والغرور بها ، بل ضاعت مرتين : ضاعت أيام أن كانت مضطهَدة خائفة من السلطة ، كما ضاعت أيام أن اغترت بالسلطة ، وأصبحت الدين الرسمي للدولة ، وتحوَّلت من مضطهَدة بفتح الهاء إلى مضطهِدة بكسرها ، ولكنها ـ

([1]) انظر : فلسفة التبشير : الدكتور نوح الغزالي ، ص ١٣٤ ـ ١٣٨ ٠ المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية : الدكتور محمد رجب الشتيوي ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م ، مطبعة التقدم (طنطا) ، ص ١٢٧ و ١٢٨ ٠

للأسف الشديد . لم تضطهد هذه المرة أعداءها ، بل استعانت بالسلطان وقوته على اضطهاد بني جلدتها ، ممن هم على التوحيد ودين المسيح " عليه السلام " ، ولا يرضى عنهم الملك ذو المرجعية الوثنية ، فيقول :

تضيع الدعوة إن اصطدمت بالسلطة أو امتلكتها ، لأن الله يريد لدعوته أن تكون قوتها ذاتية ، لا تعتمد على قوى خارجية ، تقوى بقوتها ، وتضعف بضعفها ، وقد تنهار بانهيارها . والحقيقة دائما قوتها في ذاتها ، لا تحتاج إلى شيء آخر غير كشفها للناس ، فهي وحدها أقوى من كل قوة ، وأوضح من كل بيان ، وأفحم من كل برهان . أرأيت إلى البدهيات الضروريات ، التي يُستدل بها ولا يُستدل عليها ، لأنها الحق ، والحق يشهد لغيره ، ولا يحتاج إلى شهادةٍ من أحد . ويخطئ في الدعوة صديقان : أحدهما يظن أنها تنتصر بالقوة والسلطان والحسب والنسب والجاه ، فيتلمسها بكل سبيل ، وثانيهما يخشى عليها قوة العدو ، وعنف الخصوم ، ومراكز المناوئين ، فيتلمس رضاهم بكل طريق ، الأول طالب سلطة مهما خدع نفسه أو خدعه شيطانه ، والآخر يبغي رضا خصومه ، وإن زعم غير ذلك .

ولقد وقعت الكنيسة المسيحية في هذا الخطأ ، حيث مرت بمرحلتين : في الأولى اصطدمت بقيصر ، فدمرها بسيفه ، وفي الثانية ارتمت في أحضانه ، فأهلكها بذهبه . اضطُهدت في الأولى حتى فقدت كل ما يربطها بالدين ، واضطَهدت في الثانية حتى يئس منها كل طامع في الخير . اضطهدتها الإمبراطورية حتى صفَّتها من كل أثر يربطها بالمسيحية ، فلما ملكت هي زمام السلطة اضطهدت كل دعوة مسيحية . اضطُهدت حتى كرهت الدين الذي بسببه عانت ما عانته ، فتخلت عما يشكل خطرا على الدولة ، واضطَهدت حتى كره الناس كل دين ، حتى لا يكون صورة لدين الكنيسة . في الأول لم تتخل عن الدين فحسب ، بل تبنت الوثنية وبشَّرت بها ، وفي الثاني لم يتخل الناس عن دين الكنيسة فحسب ، بل كرهوا كل دين . كان الاضطهاد عنيفا ، وعجاجه كثيفا إلى الحد الذي ضاع صوت الكنيسة سدى ، حتى إذا مضى ثلاثة قرون من العذاب الأليم طرق سمع الإمبراطور صوت استغاثة من دهاليز الكنائس يستصرخ : أيتها

الإمبراطورية إننا نعبد ما تعبدون ، ونؤله ما تؤلهون ، فعلام العذاب ونحن رهن ما تأمرون ([١]) .

مارس الأباطرة الرومان على مدار ثلاثة قرون اضطهادات كثيرة ([٢]) ، وكان هدفهم القضاء على المسيحيين والمسيحية قضاء مبرما ، واكتشف الإمبراطور قسطنطين

([١]) هذا الكلام ينطبق على واقع المسيحية ودعوتها ، حيث دُمِّرت مرتين : الأولى بسيف السلطان الظالم ، والثانية بذهبه وإغرائه وقبول رجال المسيحية هذه الرِّشى على حساب دينهم ، في الأولى أجرم الأباطرة (السلاطين) ، وفي الثانية ارتكب رجال الكنيسة في حق دينهم كبيرة من أكبر الكبائر . ولكن هذا الكلام لا ينطبق على واقع الإسلام الذي امتلك السلطة وأقام دولة عظيمة في المدينة المنورة ، وكان على رأسها رسول الله " صلى الله عليه وسلم " ، وتناوب عليها بعد ذلك خلفاء عظام ، وسعد الجميع مسلمون وغير مسلمين في ظل تلك الدولة العادلة ، ولم تصطدم الدعوة الإسلامية بالسلطة ، بل قامت بواجب الدعوة ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فأرسل رسول الله " صلى الله عليه وسلم " رسله إلى ملوك ورؤساء العالم يدعوهم إلى هذا الدين العظيم .

([٢]) من أشهر هذه الاضطهادات : اضطهاد نيرون سنة ٦٤ م ، ودوميتناوس سنة ٩٠ م ، وتراجان سنة ١٠٦ م ، وأدريانوس سنة ١٢٤ م ، وماركوس أوريليوس سنة ١٦٢ م ، وسافيروس سنة ٢٠٣ م ، وكاراكلا سنة ٢١١ م ، ومسكيميانوس سنة ٢٣٥ م ، وديسيوس سنة ٢٤٩ م ، وفاليريان سنة ٢٥٨ م ، ودقلديانوس سنة ٢٨٤ م ، وغاليريوس سنة ٣٠٤ م ، ومكسيميان سنة ٣٠٥ م .
فلقد تفنن نيرون في ابتداع أبشع ألوان التعذيب ، فكان يضع بعض المسيحيين وهم أحياء في جلود الحيوانات ويطرحهم للكلاب لتنهشهم ، ويطلي بعضهم الآخر بالقار ويعلقهم في مشانق ، ثم يضرم فيهم النار ، ليجعل منهم مشاعل يستضيء بها وهو يمر ليلا . ولما بلغ الإمبراطور دوميتناوس أن المسيح " عليه السلام " مزمع أن يحكم العالم ، خاف أن يتم ذلك في عهده ، فأمعن في اضطهاد المسيحيين وقتل الكثير منهم . واستخدم الإمبراطور تراجان ساحة الملعب الروماني في إعدام المسيحيين بإلقائهم إلى الوحوش تمزقهم شر ممزق ، وهو يتلهى بمنظرهم وهم يتحولون بين الأنياب المفترسة إلى أشلاء . وأصدر الإمبراطور ماركوس أوريليوس أمره بإبادة المسيحيين ، وبدأ يقتل رؤساءهم . وتفنن سافيروس في وسائل التعذيب والإبادة الجماعية . أما ديسيوس فقد قتل عشرة آلاف دفعة واحدة ، حتى إن السيوف من كثرة ما استعملت تكسَّرت ولم تعد تقطع ، بينما أنهك التعب الجلادين . وصمَّم دقلديانوس على ألا يكف عن قتل المسيحيين حتى تصل دماؤهم ركبة فرسه ، وهدم الكنائس ، وأحرق الكتب ، وقبض على الأساقفة وأذاقهم كل صنوف العذاب . انظر : فلسفة التبشير أو إفلاس الكنيسة : الدكتور نوح الغزالي ، ص ١٠٥ - ١١٠ .

مؤخرا أن هذا الأسلوب ثبت فشله ، فأراد أن يجرِّب حلا آخر يحقق له نفس الهدف ، ويزيد عليه هدفا آخر هو وحدة الإمبراطورية ، وكان هذا الحل هو استقطاب المسيحيين وإعلان التسامح معهم ، ولم يقف الأمر بالإمبراطور عند جعل المسيحية الدين الرسمي للدولة ، وتقرير عقيدة الكنيسة ، وإرغام المجمع على اعتمادها ، وإنما بدأ مرحلة مع المسيحية لم يسبق إليها إمبراطور آخر ، فقد حوَّل دفَّة الاضطهاد الذي اشتهرت به الإمبراطورية ، ولم تُفرِّق بين طائفة وطائفة ، ولا بين كنيسة وكنيسة ، حوَّله إلى اضطهاد لطائفة واحدة ولكنيسة واحدة ، التي أخذت على عاتقها الإيمان بالدين الصحيح ، وكانت أول إشارة في مجمع نيقية بإحراق الكتب والرسائل التي تتعارض والعقيدة النيقاوية ، وعذَّب أصحابها ، وسجن بعضهم وشرَّد آخرين .

وكان ذلك إيذانا ببدء مرحلة تحولت فيها الكنيسة من مضطهَدة بفتح الهاء إلى مضطهِدة بكسرها ، مع فارق واحد هو أن الإمبراطورية كانت المسئولة عن القضاء على المسيحية ، أما الآن فقد اتحدت الكنيسة والإمبراطورية معا للقضاء على الطوائف الموحدة وتصفيتها ، حتى تخلص الحياة للمسيحية المتوثنة أو الوثنية المتمسحة [1] .

ويتحدث مؤلف " صيحة تحذير " عن ضياع المسيحية وتحريفها على يد قسطنطين ، قائلا : إن قضية الثالوث والفداء لا تعرفها أديان السماء ، والنصارى الأولون كانوا على عقيدة التوحيد ، وظاهرٌ أن نفرا من شياطين الإنس حاولوا فتنتهم عن هذا المعتقد الصالح ، وأرادوا أن يخلطوا بين الوحي النازل على عيسى " عليه السلام " وبين تعاليم أرضية قديمة ، ونشب عراك شديد بين المحافظين والمحرفين ظل قرابة أربعة قرون ، انتصرت فيه للأسف العقيدة المغشوشة ، والمبادئ المعلولة ، واستخفى من قلوب الناس التوحيد الخالص . وقد أعان السلطان الروماني على بلوغ هذه النتيجة الرديئة ، فإذا الواحد ثلاثة ، وإذا المعابد مذابح وقرابين ، وإذا رجال الدين وسطاء

---

[1] انظر : فلسفة التبشير أو إفلاس الكنيسة : الدكتور نوح الغزالي ، ص ١٠٥ - ١١٠ و ١١٢ و ١١٥ - ١١٨ و ١٤٦ .

يغفرون الذنوب ، وإذا المسئولية الشخصية تبتعد ، وإذا أحكام إلهية كثيرة تتوارى ، وإذا تحريفٌ واسع النطاق يدخل في تراث عيسى " عليه السلام " .

ثم يقول عن خلاصة هذه القرون الأربعة : إنه تم تأليف دين جديد ، أصوله قائمة على التثليث والفداء ، لا تتفق مع أي دين سماوي سبق، بل هي في الحقيقة صلح ماكر مع الأديان الأرضية التي تقوم على تعدد الآلهة وتقديم القرابين .

وقسطنطين هو الذي حسم الشقاق بين شعبتي التيار النصراني المتخاصمتين في مؤتمر نيقية ، إذ أيد القلة القائلة بالصلب والفداء وبنوة المسيح " عليه السلام " لله ، وخذل الكثرة التي تقول بنبوة عيسى " عليه السلام " لا بنوته ، وصادر حرياتهم وكتبهم ، وانفسح المجال للتيار المعوِز ، وانفرد بالسلطة ، فبقيت كتبه وحدها . فعل الإمبراطور كل ذلك وهو حاكم وثني تدخَّل فيما لا يدري ولا يحسن ، ولذلك قال علماؤنا : لم يتنصر الرومان ، ولكن تروَّمت النصرانية . فخلال القرون الأربعة الأولى للنصرانية كانت الحرب ضارية بين الموحدين والمعددين ، ولولا تدخل الإمبراطور الروماني بقوته في المعركة ما رجحت كفة المعددين ، وما انتشرت كتبهم ، وما انعقدت المؤتمرات التي صبَّت العقيدة المسيحية في قالبها الجديد (1) .

فلقد ضاعت المسيحية هذه المرة بعد أن امتلكت السلطة واغترت بها ، وأصبحت ديانة محرَّفة بعد أن سطا عليها قسطنطين بسلطانه وقوته ، وفرض عقائد باطلة ، ومحا عقائد صحيحة ، وصادر كتب الموحدين ، وأزهق أرواح الألوف من الداعين إلى وحدانية الله وبشرية عيسى " عليه السلام " .

سادسا : مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ودور قسطنطين فيه :

أ . تعريفٌ بالمجامع النصرانية :

---

(1) انظر : صيحة تحذير من دعاة التنصير : الشيخ محمد الغزالي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٢ هـ . ١٩٩١ م ، دار الصحوة للنشر والتوزيع (القاهرة) ، ص ٢٧و ٦٧ و ٧٣ و ٨٦ و ٨٧ .

تبرز أهمية دراسة هذه المجامع في تقرير عقيدة التثليث ، التي لم تكن من تعاليم المسيح " عليه السلام " ، ولكنها كانت من تفسيرات القساوسة والأساقفة في المجامع ، ولم تُقرَّر تلك العقيدة دفعة واحدة أو في مجمع واحد ، وإنما على فترات ومن خلال عدة مجامع ٠ وهناك جوانب أخرى تُبرزها دراسة المجامع ، هي : معرفة كيف انفصلت الكنيسة جغرافيا إلى شرقية وغربية ، وعقائديا إلى أرثوذكسية وكاثوليكية (١) وبروتستانتية (٢) ؟ وكيف نشأت البابوية

(٣) ، وفكرة الإصلاح الديني ، وفصل الدين عن الدولة في أوربا ؟

---

(١) الكاثوليك : هم أتباع البابا في روما ، وكنيستهم تسمى الكنيسة الكاثوليكية أو الغربية أو اللاتينية أو البطرسية أو الرسولية ، وهي أكبر الكنائس النصرانية في العالم ٠ يؤمنون بأن للمسيح طبيعتين لاهوتية وناسوتية ، وأن الروح القدس منبثق من الآب والابن معا ، وتؤمن بأسرار الكنيسة السبعة وتزيد عليها عصمة البابا ، ويُحرِّمون الطلاق بتاتا حتى في حالة الزنا ٠ انظر : دراسات في الأديان : الدكتور سعود الخلف ، ص ٢٣٨ ٠ المسيحية : الدكتور أحمد شلبي ، ص ٢٥٠ ٠

(٢) البروتستانت: هم أتباع مارتن لوثر ، الذي ولد في ألمانيا سنة ١٤٨٣ م ، وعاش في بيئة كهنوتية ، وفي سنة ١٥٠٧ م عُيِّن قسيسا لرعاية كنيسة كنتبرج بألمانيا ، ولما اعترض على صكوك الغفران ، أصدر البابا قرارا بحرمانه سنة ١٥٢٠ م ، وتوفي سنة ١٥٤٦ م ٠ تسمى كنيستهم " الإنجيلية " لأنهم يتبعون الإنجيل دون غيره ، ولا يؤمنون بعصمة البابا ، ولا صكوك الغفران ، ويؤمنون بسر المعمودية والعشاء الرباني فقط من جملة أسرار الكنيسة السبعة ، ويمنعون اتخاذ الصور والتماثيل في الكنائس ، ويبيحون الزواج لرجال الدين ، ولا يقولون بألوهية أم المسيح " مريم " ٠ انظر: دراسات في الأديان والنحل: أحمد غلوش ، ص ٦٩٢ ـ ٦٩٩ ٠ قاموس المذاهب والأديان : حسين علي حمد ، ص ٥٢ و ٥٣ ٠

(٣) البابوية : البابا هو رأس الكنيسة الكاثوليكية ، والحاكم المطلق فيها ، وجميع الأساقفة يدينون له بالولاء التام ، ويوجهون كل رعاياهم للخضوع لأوامره ، وكان في بادئ الأمر يسمونه البطريرك ، وأول من تسمى بالبطريرك هو حنانيا تلميذ مرقس الإنجيلي ، وأول ظهور لهذا اللقب كان في مصر ، ثم نُقل إلى صاحب كرسي بطرس الرسول في روما ٠ انظر : تاريخ المسيحية : المسيحية في العصور الوسطى : جاد المنفلوطي ، دار

والمجامع هيئات شورية في الكنيسة المسيحية رسم الرسل نظامها في حياتهم ، إذ عُقد المجمع الأورشليمي الأول سنة ٥١ م ([1]) ، برئاسة أسقفها ([2]) يعقوب ([3]) الرسول ، للنظر في مسألة ختان الأمم ، ونسجت الكنيسة بعد ذلك على منواله .

التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية (القاهرة) ، ص ٩٢ . إفلاس العلمانية : إشكالية المصطلح ومراحله : الدكتور سيد أحمد عبد المرضي ، الطبعة الأولى ، ص ٢١ .

([1]) مجمع أورشليم ٥١ م : أساس المجامع المسيحية التي غيَّرت وجه المسيحية الأصلية ، وهو الوحيد الذي ورد ذكره في العهد الجديد (أعمال الرسل ، الفصل الخامس عشر) ، وانعقد بعد ترك المسيح " عليه السلام " تلاميذه باثنتين وعشرين سنة ، والسبب في عقده هو الخلاف في أمر الختان ، حيث كان بولس يقبل غير اليهود دون مطالبتهم بالختان أو التشريع الموسوي ، رغم أن المسيح " عليه السلام " خُتن : " ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع " (لوقا ٢ : ٢١) ، ويشرح المسيح " عليه السلام " لتلاميذه أمر الختان قائلا لهم : " لهذا أعطاكم موسى الختان ، ليس أنه من موسى بل من الآباء ، ففي السبت تختنون الإنسان ... لئلا يُنقض ناموس موسى " (يوحنا ٧ : ٢٢ - ٢٤) . فالختان أصل الناموس الموسوي والتشريع العيسوي ، نفذه عيسى " عليه السلام " وسار عليه تلاميذه من بعده ، ولكن بولس ألغى الختان مجاراة للبيئة والعقيدة الوثنية ، وجلبا لأصحابها إلى ديانته ، ونشر تعاليمه قائلا : " إن الختان ينفع إن عملت الناموس ، ولكن إن كنت متعديا الناموس فقد صار ختانك غرلة ... وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان " (رومية : ٢٥ و ٢٩) ، وهذا يعني أن الختان ختان القلب ، وأما ختان الجسد فهو طهارة ظاهرية لا قيمة لها إلى جانب طهارة الباطن . فعُقد هذا المجمع بعد إيمان بولس بأربعة عشر عاما ، وقرر عدم التمسك بمسألة الختان ، بل زاد عدم التمسك بشرائع التوراة فيما يتعلق بالتحريم ، إلا تحريم الزنى وأكل المخنوق وذبائح الأوثان ، وبهذا سنَّ المسيحيون سنة جمع المجامع لدراسة ما يتعلق بالعقيدة والشريعة : انظر : المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية : الدكتور محمد رجب الشتيوي ، ص ٩٥ - ١٠٩ . محاضرات في النصرانية : الإمام محمد أبو زهرة ، ص ١١١ .

([2]) الأسقف : رتبة دينية عند النصارى فوق رتبة القسيس ودون رتبة البطريرك والمطران ، والأساقفة هم مشرفون معينون على الجماعات للسهر عليهم . انظر : الموسوعة الميسرة : الدكتور مانع بن حماد ، ج ٢ ص ٩٦٠ . معجم اللاهوت الكتابي : مجموعة من الآباء والقساوسة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ م ، دار المشرق (بيروت) ، ص ٣٠٢ .

([3]) يعقوب : اسم عبري معناه " يعقب ، يمسك العقب ، يحل محل " ، وهو : أحد الآباء الثلاثة الكبار للعبرانيين . يعقوب الكبير ابن زبدي وأحد الاثني عشر والأخ الأكبر ليوحنا الرسول (مت ٤ : ٢١) . يعقوب الصغير ابن حلفى وأحد الاثني عشر أيضا (مت ١٠ : ٣ ، مر ٣ : ١٨) . يعقوب " أخو الرب "

والمجامع نوعان : مجامع مسكونية أو عامة ، تجمع رجال الكنائس المسيحية من جميع الأقطار ، وقد عُقدت عدة مرات في القرون الأولى ، وكان السبب الرئيس لعقدها ، ظهور مذاهب دينية غريبة ، ينبغي فحصها ، وإصدار قرارات بشأنها وشأن مبتدعيها . ومجامع مكانية أو إقليمية ، تعقدها كنائس مذهب أو أمَّة في حيزها الخاص ، لإقرار عقائد معينة أو رفضها ، أو النظر في بعض الشئون المحلية الخاصة . وهناك من قسَّمها ثلاثة أقسام : مجامع عامة (مسكونية) ، ومجامع ملية (خاصة بطائفة دون غيرها) ، ومجامع إقليمية (خاصة بإقليم ما) .

ويقول المؤرخون : إن الإحصائيات التي أُجريت لمعرفة عدد المجامع التي انعقدت من القرن الأول المسيحي إلى مجمع الفاتيكان (١) سنة ١٨٦٩ م تساوي عشرين مجمعا ، ولا يعترف الأرثوذكس إلا بقرارات المجامع الأربعة الأولى ، التي كان آخرها مجمع نيقية

(مت ٢٣ : ٥٥ ، مر ٦ : ٣) - وربما هو المقصود هنا - وكان رأس الكنيسة في أورشليم في العصر الرسولي (أع ١٢ : ١٧ ، ١٥ : ١٣ ، ٢١ : ١٨ ، غلا٢ : ٩ و ١٢) ، وذكر مرتين في الإنجيل (مت ١٢ : ٥٥ ، مر ٦ : ٣) ، وكان يلقب بالبار بسبب شدة غيرته على الشريعة . رسالة يعقوب هي أولى الرسائل الشاملة الجامعة الثلاث الموجهة إلى الكنيسة كلها ، وقد عَدَّ بولس كاتبها واحدا من الرسل (غلا ١ : ١٩) ، وهو راعي كنيسة أورشليم ، وقد كُتبت هذه الرسالة بين سنة ٥٠ ــ ٦٠ م . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ١٠٧٣ - ١٠٧٦ .

(١) الفاتيكان : دولة مدينة الفاتيكان ، هي أصغر دولة من حيث المساحة والسكان في العالم ، وتقع في قلب مدينة روما عاصمة إيطاليا التي تحيط بها من جميع الاتجاهات ويفصلها عنها أسوار خاصة . وبرغم كونها أصغر دول العالم مساحةً وسكانا فهي تستقي دورها وأهميتها من كونها مركز القيادة الروحية للكنيسة الكاثوليكية في العالم والتي يربو عدد أتباعها على ١,١٤٧ مليار نسمة، كذلك من كونها تحفظ في متاحفها وأرشيفها مجموعة من أرقى المنتجات الفنية للجنس البشري على مر العصور، وأُدرجت الفاتيكان على لائحة اليونيسكو كأحد مواقع التراث العالمي ، وممثلة لدى عديد من المنظمات الدولية كالأمم المتحدة وعدد من وكالاتها ، إلى جانب منظمات أخرى غير رسمية . والفاتيكان دولة يديرها الإكليروس، ويرأس هؤلاء البابا أسقف روما المنتخب من قبل مجمع الكرادلة متمتعًا بصلاحيات غير محدودة مدى الحياة . انظر : الموسوعة الحرة .

الثاني سنة ٧٨٧ م • وأخطر المجامع التي لها صلة بانحراف العقائد المسيحية عن التوحيد إلى التثليث أربعة : مجمع نيقية الأول سنة ٣٢٥ م ، ومجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ م ، ومجمع أفسس سنة ٤٣١ م ، ومجمع خلقيدونية ([١]) سنة ٤٥١ م ، وفيها تقررت العقائد الرئيسة للمسيحية ، التي تلتقي حولها جميع الفرق والمذاهب المسيحية ([٢]) •

ب ـ أسباب انعقاد مجمع نيقية :

مجمع نيقية الذي عُقد في ٢٠ مايو سنة ٣٢٥ م هو المجمع المسكوني الأول الذي له أثر بعيد في حياة التدين المسيحي ، وهو أهم المجامع المسيحية وأخطرها ، لأنه بداية التخطيط لعقيدة التثليث ، وأول مجمع قرر ألوهية المسيح " عليه السلام " ، وخرج بقانون الإيمان النيقاوي ، وكانت اليد الطولى التي أثَّرت في قراراته هي يد السلطان قسطنطين ، الإمبراطور الروماني الذي استطاع ـ عن طريق هذا المجمع ـ أن يحول المسيحية إلى وثنية •

وهناك سببان لانعقاد هذا المجمع : سبب عام ، وسبب خاص :

أما السبب العام فهو اختلاف الطوائف المسيحية في شخص المسيح " عليه السلام " أهو رسول من عند الله فقط ؟ أم له بالله صلة أكبر من رسول ؟ فهو من الله بمنزلة الابن لأنه خلق من غير أب ، وتباينت نحلهم ، وكل يزعم أن نحلته المسيحية الصحيحة التي جاء بها المسيح " عليه السلام " •

([١]) مجمع خلقيدونية (٤٥١ م) : من أهمّ المجامع، إذ نجم عن هذا المجمع انشقاقٌ أدّى إلى ابتعاد الكنائس الشرقيّة ، عن الشراكة مع الكنيستين الرومانيّة والبيزنطيّة . الكنائس الشرقيّة رفضوا اصطلاح "طبيعتين" الذي كان يوازي عندهم لفظة (شخصين). وكانوا يفضلون عليها تعابير أخرى وردت عند البابا كيرلّس مثل عبارة "طبيعة واحدة" في قولته الشهيرة: "طبيعة واحدة للإله الكلمة المتجسد.." • انظر : الموسوعة الحرة •

([٢]) انظر : المجامع النصرانية ودورها في تحريف المسيحية : سلطان عبد الحميد سلطان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٠ هـ ـ ١٩٩٠ م ، مطبعة الأمانة (القاهرة) ، ص ٧٩ ـ ٨٤ • محاضرات في النصرانية : الإمام محمد أبو زهرة ، ص ١١١ • المسيحية : الدكتور أحمد شلبي ، ص ٢٠٧ •

وهناك السبب الخاص الذي يتعلق بنوعٍ من هذه الخلافات ، وهو ما يسمونه في تاريخهم بدعة آريوس ([1]) ، الذي أخذ على نفسه مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما تبثه بين المسيحيين من ألوهية المسيح " عليه السلام " ، فقام هو محاربا ذلك ، مقرا بوحدانية المعبود ، منكرا ما جاء في الأناجيل مما يوهم تلك الألوهية .

ظهرت هذه الانقسامات والاختلافات في نفس الوقت الذي بدأ فيه الإمبراطور قسطنطين يشعر بالاطمئنان الجزئي على وحدة الإمبراطورية ، حيث بذل كل غال ورخيص للوصول إلى عرش هذه الإمبراطورية الرومانية الموحدة ، بعد أن سُوِّيت الأمور

([1]) آريوس : أخذ آريوس يدعو إلى مذهبه وعقيدته القائمة على التوحيد ، وإخلاص العبادة لله رب العالمين ، وهذا ما بيَّنه آريوس بقوله : " إنه يؤمن بإله واحد متعال ، يفوق حد القصور ، وهو فريد لا شبيه له ، أزلي لا بداية له ، لا يموت " ، ثم بين عقيدته في المسيح " عليه السلام " قائلا : إن المسيح " عليه السلام " خلقه الآب خلقا مثل باقي المخلوقات ، وهو ليس مساويا للآب في الجوهر ، بل على العكس تتغير طبيعته مثل أي مخلوق ، وهو كأي مخلوق قادر على عمل الخير والشر ، وهو معرض للخطأ ، ولا يستطيع أن يحيط بكل شيء ، وهو بهذا الوصف لا يستحق أن نعبده ، بل أن نحترمه ونعترف بجميله " . وراح آريوس يجاهر في عظاته بهذا المذهب ، والتف حوله مشايعون كثيرون من فلسطين ومقدونية والقسطنطينية وأسيوط ، وهي المناطق التي بشَّر فيها المسيح " عليه السلام " وتلاميذه ، مما يؤيد أن رأيهم هو رأي المسيح " عليه السلام " .

وكانت كنيسة الإسكندرية تعتقد بأن المسيح " عليه السلام " مولود ــ غير مخلوق ــ من الآب قبل الدهور ، وأنه مساو للآب في الجوهر . ووقفت في وجه آريوس وحاربته على النحو التالي : عمد بطرس ــ بطريرك الإسكندرية ــ إلى لعن آريوس وطرده من الكنيسة ، وتجريده من وظيفته ، وإصدار قرار بحرمانه ، واختلق لتبرير أفعاله هذه أنه رأى المسيح " عليه السلام " في المنام يتبرأ من آريوس ويلعنه ، وفي ذلك يقول بطرس : إني رأيت المسيح في النوم مشقوق الثوب ، فقلت له يا سيدي : من شق ثوبك ؟ فقال : آريوس ، فاحذروا أن تدخلوه معكم ، وأوصى بطرس خلفاءه قبل موته بعدم الصفح عن آريوس ، لأنه عدو المسيحية اللدود .

لم يخضع آريوس للحكم بتجريده من الكهنوت ، واستمر في أداء الخدمة الدينية والوعظ والتبشير بمذهبه ، فاضطر البطريرك أن يطرده من الإسكندرية ، فذهب إلى فلسطين، وعقد أشياعه مجمعا في فلسطين سنة ٣٢٣ م ، قرروا فيه إلغاء الحكم الصادر على آريوس من بطريرك الإسكندرية ، فرجع آريوس بناء على هذا القرار إلى الإسكندرية ، مما زاد الموقف خطورة وخلافا بين ألكسندروس أسقف الإسكندرية وآريوس ، مما استدعى عقد جمع نيقية سنة ٣٢٥ م . انظر : المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية : الدكتور محمد رجب الشتيوي ، ص ١١٥ - ١٢٣ .

بينه وبين خصمه " ليكنيوس " ، وأصبح سيدا للموقف سنة ٣٢٣ و ٣٢٤ م ، وهنا يظهر خطر جديد يمزق وحدة هذه الإمبراطورية ، فاستشار الإمبراطور الأسقف هوسيوس (صديقه العزيز) ، واتفق الاثنان على أن يكتب الإمبراطور شخصيا إلى ألكسندروس الأول (١) وآريوس ، داعيا إياهما إلى الصلح والسلام ، وتُعتبر هذه الرسالة من أهم الرسائل الدينية التي كتبها قسطنطين ، وحمل الرسالة الأسقف هوسيوس نفسه ، لكي يناقش الأشخاص المعنيين بالأمر في مشكلة الانقسام الخطيرة ، ومع أن هذه الرسالة لم تأت بالنتائج التي كان ينتظرها الإمبراطور ، إلا أن رحلة هوسيوس ومقابلته طرفي النزاع ، جعلته يكوِّن صورة متكاملة الجوانب للموقف .

اعتزم الملك قسطنطين القضاء على هذا الخلاف ، حتى يستطيع أن يثبِّت أقدامه على العرش الإمبراطوري للدولة الرومانية الموحدة ، ومن هنا دعا إلى عقد هذا المجمع للوصول إلى تلك الغاية السياسية (٢) . فلهذا المجمع سبب ديني عام وخاص ، وسبب سياسي ، وهو الأساس لعقده .

ج ـ انعقاد المجمع ودور قسطنطين فيه :

---

(١) ألكسندروس الأول : بابا الإسكندرية بطريرك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية التاسع عشر (٣١٣ ـ ٢٦). وُلد بالإسكندرية، وسيم بها قسًا ثم بابا . في تقواه دعاه الشعب بالقديس، وفي حبه للفقراء والمساكين كانوا يلقبونه ب "أب المساكين" . كان يبذل كل الجهد لمقاومة فكر آريوس منكر لاهوت المسيح ، ولما بدأ آريوس يهاجم ألوهية المسيح علانية، عقد البابا مجمعًا محليًا عام ٣١٩م يطالبه بترك ما أسماها بدعته، ولما رفض آريوس ، عقد البابا مجمعًا آخر بالإسكندرية يضم مائة أسقف، وحرم آريوس مصدقًا علي قرار المجمع السابق. انظر : الموسوعة الحرة .

(٢) انظر : محاضرات في النصرانية : الإمام محمد أبو زهرة ، ص ١١٢ و١١٣ . المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية ، الدكتور رجب الشتيوي ، ص ١١٣ و ١١٤ . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء : الدكتور رءوف شلبي ، ص ٢١٢ . المجامع النصرانية ودورها في تحريف المسيحية : سلطان عبد الحميد ، ص ٨٥ ـ ٨٨ . تاريخ الفكر المسيحي : حنا الخضري ، ص ٦٢٤ و ٦٢٥ .

عُقد هذا المجمع في مدينة نيقية ، وكم كان المنظر عجيبا ومؤثرا للغاية ، عندما اجتمع هؤلاء الأساقفة ، وكان يعرض بعضهم على بعض التشوهات الجسدية وآثار الجروح والضربات والجلدات ، التي تركتها فترة الاضطهادات العنيفة القاسية ، والآن كل شيء قد تغيَّر ، بل إن الإمبراطور نفسه حاضر معهم ، يأمر جيشه بحراستهم والعناية بهم ، وشكر المجمعُ الإمبراطور على اهتمامه وعنايته بالكنيسة .

وتم افتتاح المجمع في العشرين من مايو سنة ٣٢٥ م ، لإيجاد حل للمسائل المتنازع عليها خاصة ما يتعلق بأمر العقيدة ، وما ثار من خلاف في مسألة علاقة الآب بالابن ، وهل هما متساويان في الجوهر كما يعتقد المثلِّثون ، أو أن الآب غير الابن كما هو المذهب الآريوسي ، ودامت جلساته سبعة وتسعين يوما ، واجتمع تحت رياسة قسطنطين ، وافتتح هو المناقشات ، ففي الجلسة الافتتاحية وُضعت الكراسي ، وأخذ كل واحد منهم مكانه ، وساد الكلَّ صمت رهيب في انتظار الإمبراطور ، الذي تصدَّر الاجتماع ، وألقى خطابا حض فيه على فض المشاكل ، وكان حضوره إيذانا بأهمية النقاش ، كما أن شدة اهتمامه زادت من كثرة الحجج ، وطلب الإمبراطور من آريوس أن يشرح مذهبه الذي يخالف عقيدة الكنيسة ، فقام رئيس الموحدين مبرهنا على أن المسيح " عليه السلام " مخلوق ، وأنه عبد الله ورسوله ، بما لديه من الآيات الإنجيلية ، وانبرى للرد على آريوس كبير المؤلهين للمسيح " عليه السلام " أثناسيوس ، الذي حاول أن يبرهن على أن المسيح " عليه السلام " إله تام ، وأنه متحد الجوهر مع الله ، بآيات من الإنجيل .

واشتد الخلاف بين المجتمعين حول القول بألوهية المسيح " عليه السلام " ، وتبنت الأغلبية الساحقة رأي آريوس ، فأصدر الإمبراطور قراره بفض الاجتماع ، ثم أُعيد عقد الاجتماع عقب ذلك ، ولم يحضره إلا الأعضاء القائلون بالتثليث وبألوهية المسيح " عليه السلام " ، وعددهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا ، وحضر الإمبراطور نفسه .

يقول ابن البطريق (1) : " وضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا مجلسا خاصا عظيما ، وجلس في وسطهم ، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم ، وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتي ، لتصنعوا ما ينبغي لكم أن تصنعوا ، مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين ، فباركوا الملك ، وقلَّدوه سيفه ، وقالوا له : أظهر دين النصرانية وذُبَّ عنه ، ووضعوا له أربعين كتابا ، فيها السنن والشرائع ، منها ما يصلح للملك أن يعمل بها ، ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا بما فيها ، واتفقوا على نفي آريوس وأصحابه ولعنهم وكل من يقول بقولهم ، ووضعوا الأمانة " (2) . فقد استغل قسطنطين سلطانه كإمبراطور لفرض الآراء المؤلهة ، الأقرب إلى عقيدته الوثنية .

د . قرارات المجمع وآثارها :

أصدر الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا . بقوة السلطان . قرارا رسميا ، كتبوه في وثيقة ووقَّعوا عليها ، وهذه الوثيقة تسمى عندهم الأمانة أو قانون الإيمان ، وبها تدين الكنائس ، وهذا نصُّها مع فقراتها من العهد الجديد :

" نؤمن بإله واحد (يوحنا ١٤ : ٣٠ ، أعمال ١٦ : ٣١) ، ضابط الكل (كورنثوس الأولى ٨ : ٦ ، غلاطية الأولى ١ : ١) ، خالق ما يُرى وما لا يرى (كورنثوس الأولى ١ : ١٦) ، ونؤمن برب واحد يسوع المسيح (كورنثوس الأولى ٨ : ٩ ، غلاطية الأولى ٦ : ٨) ، ابن الله الوحيد (يوحنا ١ : ١٨ ، متى ١٤ : ٣٣) ، المولود من

---

(1) ابن البطريق : هو سعيد بن البطريق ، طبيب ومؤرخ مسيحي، ولد في الفسطاط في 263 هـ ، وأبدع في الطب حتى اشتهر به . عُيِّن بطريركا على الإسكندرية ، وله عدد من المصنفات أشهرها كتابه في التاريخ نظم الجوهر المعروف أيضا بتاريخ ابن البطريق ، الذي أخذ عنه ابن خلدون ، وله كتاب كنّاس في الطب .توفي عام 328 هـ بالإسكندرية . انظر : الموسوعة الحرة .

(2) انظر : تاريخ الفكر المسيحي : حنا الخضري ، ص ٦٢٨ . النصرانية من التوحيد إلى التثليث : الدكتور محمد الحاج ، ص ١٧٥ و ١٧٦ . المجامع المسيحية : الدكتور رجب الشتيوي ، ص ١٣٥ ـ ١٤٠ . المسيحية : الدكتور أحمد شلبي ، ص ٣١٧ . محاضرات في النصرانية : الإمام محمد أبو زهرة ، ص ١١٥ . المجامع النصرانية : سلطان عبد الحميد ، ص ٩٠ و ٩١ .

الآب قبل الدهـور (عبرانيين ٥ : ٥) ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، ومولود غير مخلوق (يوحنا ٣ : ١٩ . ٢١ و ٣٥ ، ٥ : ٢٦) ، مساو للآب في الجوهر (يوحنا ١٠ : ٤ و ٣٨ و ٤٠ ، ١٤ : ١١ . ١٨) ، الذي به كان كل شيء (يوحنا ١ : ٣ و ١٠ ، عبرانيين ١ : ٢) ، هذا الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا (بطرس الأولى ٢ : ١٢ و ١٨ ، رؤيا يوحنا ٦ : ٧ ، ٨ : ٢٢) ، نزل من السماء (يوحنا ٣ : ١٣ ، ٦ : ٣٨) ، وتجسد من الروح القدس (متى ١ : ١٨ . ٢٠ ، لوقا ٦ : ٣٥ ، يوحنا ١ : ١٤) ، ومن مريم العذراء تأنَّس (متى ١ : ٢٣) ، وصُلب على عهد بيلاطس النبطي ([١]) وقبر (عبرانيين ٢ : ١٨ ، ٩ : ١٠) ، وقام من الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب (متى ٢٨ : ٥ . ٧) ، وصعد إلى السماوات ، وجلس عن يمين أبيه (مرقس ١٦ : ١٩ ، لوقا ٢٤ : ٢٥ ، أعمال ٧ : ٥٥) ، وأيضا يأتي ليدين الأحياء والأموات (متى ١٦ : ٢٧ ، لوقا ٩ : ٢٦ ، أعمال ١٠ : ٢٢) ، الذي ليس لملكه انقضاء (لوقا ١ : ٣٣).

ويعلق أحد القساوسة على هذا القانون بقوله : إنه خلاصة العقائد المسيحية التي وضعها القديسون لتكون قانونا يسير عليه المسيحيون ، ثم يبين أنه وُضع على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى : في مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، وقد وُضع من كلمة " نؤمن " إلى كلمة " وليس لملكه انقضاء " ، كما هو النص السابق . المرحلة الثانية : في مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ م ، حيث أضاف إلى ما قرره المجمع الأول " نعم نؤمن

([١]) بيلاطس النبطي : بيلاطس (يو ١٩ : ١) ، ويلقب بالنبطي(مت ٢٧ : ٢) ، وهو والٍ أقامته الحكومة الرومانية نائبا أو حاكما على اليهودية في سنة ٢٩ م ، واستمر حكمه بضع سنين إلى ما بعد صعود المخلص ، وكانت قيصرية مركز ولايته ، وكان يصعد إلى أورشليم دار الولاية فيقضي للشعب هناك (يو ١٨ : ٢٨) ، وهو الذي سلَّم المسيح لليهود مع اعترافه ببراءته وعدم اقترافه جرما يوجب تسليمه لهم (يو ١٩ : ٦ و ١٢) ، ويُرجَّح أن إجابة بيلاطس طلب اليهود بتسليم المسيح كان لغاية المحافظة على مركزه . انظر : قاموس الكتاب المقدس ، ص ٢٠٧ و ٢٠٨ .

بالروح القدس " . المرحلة الثالثة : في مجمع أفسس الأول سنة ٤٣١ م حيث وضع هذا المجمع مقدمة قانون الإيمان التي مطلعها " نعظمك يا أم النور الحقيقي " .

فالعقيدة المسيحية أصبحت قابلة للزيادة فيها والنقص منها ، والأمانة التي قررها المجمع لم تكتمل بعد ، بل إنها زيدت مرتين في مجمعين مختلفين ، وهذا دليل على أن المسيحية المثلثة مسيحية وضعية ، وضعتها المجامع على فترات متعددة ، بادئة بألوهية المسيح في هذا المجمع النيقاوي الأول .

ويضيف القرار النيقاوي ـ للتخويف والتحذير ـ ما يلي : " والجامعة المقدسة الكنسية الرسولية تحرِم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه ، وأنه لم يوجد قبل أن يولد ، وأنه وُجد من لا شيء ، أو من يقول إن الابن وُجد من مادة أو جوهر غير الله الآب ، وكل من يؤمن أنه خلق ، أو من يقول أنه قابل للتغيير ويعتريه ظل دوران " .

فالمسيح " عليه السلام " ـ بناء على هذا ـ إله ، وهو من جوهر الله ، وقديم بقدمه ، ولا يعتريه تغيُّر ولا تحول .

كما أصدر المجمع قرارين بشأن آريوس : الأول : أقر المجمع حرْم آريوس ، وتحريم بدعته ، ونفيه . الثاني : أقر المجمع حرق كتابات آريوس الدينية ، ومنعها عن الناس ، وقرر عقوبة الخيانة العظمى على كل من توجد معه تلك الكتابات ، وحرْم كل من يخرج على تلك العقيدة وإبعاده . واختار المجمع الكتب المقدسة التي لا تتعارض مع القرارات ، وحرَق ما عداها ([1]) .

([1]) انظر : النصرانية والإسلام : المستشار محمد الطهطاوي ، ص ٣٣ . المجامع المسيحية : الدكتور رجب الشتيوي ، ص ١٤١ ـ ١٤٧ و ١٦٤ . المجامع النصرانية : سلطان عبد الحميد ، ص ٩١ و ٩٢ . أضواء على المسيحية : دراسات في أصول المسيحية : الدكتور متولي يوسف شلبي ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٨٦ م ، الدار الكويتية للطباعة والنشر والتوزيع (الكويت) ، ص ٩٨ و ٩٩ . تاريخ الفكر المسيحي : حنا الخضري ، ص ٦٣١ و ٦٣٢ . محاضرات في مقارنة الأديان : إبراهيم خليل أحمد ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م ، دار المنار (القاهرة) ، ص ٢٢ .

إن هذا المجمع يعتبر حدثا تاريخيا هاما جدا في تاريخ العقيدة المسيحية ، فلقد كان عام **٣٢٥** م أول عام يُتخذ فيه قرار ضد التوحيد ويُحكم بألوهية المسيح " عليه السلام " ، وفي هذا المجمع أتم المتآمرون ما بدأه بولس اليهودي ، وحققوا ما أرادوه ، حينما حولوا المسيحية من دين مثالي كما جاء به المسيح " عليه السلام " إلى دين خليط من الوثنيات والخرافات والأساطير ، كما هو مشاهد الآن ٠

ومنذ انعقاد هذا المجمع الذي ترأسه قسطنطين الوثني ، أصبح ما يعتقد به أكثرية فرق النصارى مصدره الأساقفة والقساوسة المغلوبون على أمرهم من قياصرة الرومان وأباطرتهم ، الذين تسلطوا على رجال الدين بقوة السلطان وجبروت الطغيان ، وظل الحال كذلك حتى تعددت المجامع المسيحية ، وكلما انفضَّ مجمع قام مجمع آخر ، ثم ظهر ثالث بعده يقاوم ويعارض ما قرره الثاني ، وهكذا حتى ضاع أمر تلك العقيدة على أيدي هذه المجامع وقراراتها التي أصبحت المعول الذي هَدَم دين المسيح " عليه السلام " وقلبه رأسا على عقب ٠

لقد ترك هذا المجمع آثارا خطيرة على المسيحية والمسيحيين دينيا وسياسيا ، وأهم هذه الآثار :

١ ـ مزج المسيحية بالوثنية : ذلك أن قسطنطين القيصر الذي دعا إلى عقد المجمع ، ثم ترأس جلساته وأمضى قراراته ، ما كان مسيحيا إبان انعقاد المجمع ، بل كان وثنيا ، واستطاع أن يُطعِّم المسيحية بكثير من وثنيته التي ظل متمسكا بها إلى أن كان على فراش الموت ، ولم يكن ذا عقيدة ثابتة ، ولكنه لكي يصل إلى أهدافه كان بولسيا مع البولسيين ، وآريوسيا مع الآريوسيين ، ووثنيا مع الوثنيين ٠

٢ ـ ضعف سلطة رجال الدين : عُقدت المجامع المحلية في كل مكان للرد على هذا المجمع وقراراته ، خاصة المؤلهة منها للمسيح " عليه السلام " ، وأبرز هذه المجامع مجمع صور سنة **٣٣٥** م الذي قرر وجوب التمسك بعقيدة التوحيد ، وما جاهر به آريوس ، وتكفير من يقول بغير ذلك ، وصدَّق الإمبراطور قسطنطين على الحكم الذي أصدره هذا المجمع ، وأعاد آريوس من منفاه وقبِله في الكنيسة ، بل وعمل على مذهبه ، وخلع

أثناسيوس (شماس أسقف الإسكندرية) ونفاه ٠ إن عفو الإمبراطور عن آريوس ، بل وتعميدُه على مذهبه ، ونفْيَ خصمه يدل على أن القوة الدينية لرجال الدين قد تلاشت ، وحلت محلها قوة السلطان والجبروت ٠

٣ . الخوف من عصا السلطان ورهبة الملك : كان له أثره في ميلاد المسيحية الجديدة الممتزجة بالوثنية ، وكان له دخل كبير في تكوين رأي الأقلية الذين رأوا ألوهية المسيح " عليه السلام " ، وإبطال رأي الغالبية العظمى التي تُمثِّل رأي المسيحية والمسيحيين مدة ثلاثة قرون ، لتحقيق أهداف سياسية ٠ وبالتالي فَرضت الكنيسة عقيدة تأليه المسيح " عليه السلام " على المسيحيين قاطبة مؤيَّدة بسلطان قسطنطين ، لاعنة كل من يقول غير ذلك ، يقول ابن البطريق : ويظهر أن عصا السلطان ورهبة الملك كان لهما دخل في تكوين رأي الذين رأوا ألوهية المسيح " عليه السلام " ، وقسروا الناس عليه بقوة السيف ، ورهبة الحكام ٠

٤ . صبْغ المجامع المسيحية بالصبغة السياسية : كان لهذا المجمع أثره في جعل المجامع المسيحية مجامع سياسية أكثر منها دينية ، ذلك أن الإمبراطور احتفظ لنفسه بحق الدعوة لذلك المجمع ، وهو الذي يقرر بنفسه جدول المسائل التي يناقشها ، وفُرض المجمع على الناس بقوة السلطان لا برغبة الدين ، كما فَرض المجمع نفسه جماعة كهنوتية تلقي على الناس أوامر الدين ، وعليهم أن يطيعوا راغبين أو كارهين ، وقرر أن تعاليم الدين لا يتلقونها من كتب المسيحية رأسا ، بل لابد من تلقيها من أفواه العلماء ورجال الكهنوت ، وأن أقوالهم في ذاتها حجة ، سواء خالفت النصوص أم وافقت ، وسواء أكانت الصواب أم جافت الحق ([1]) ٠

([1]) انظر : المجامع المسيحية : الدكتور رجب الشتيوي ، ص ٥٧ و ١٥٩ ـ ١٦٨ ٠ المجامع النصرانية : سلطان عبد الحميد ، ص ٩٢ و ٩٣ ٠ تاريخ الفكر المسيحي : حنا الخضري ، ص ٦٤٨ ٠ محاضرات في النصرانية : الإمام محمد أبو زهرة ، ص ١١٧ ٠

وللمزيد من المعلومات حول مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م ، راجع : المسيحية : الدكتور أحمد شلبي ، ص ١٦٠ و ١٦١ و ٢٠٨ ٠ حقيقة التبشير : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ٦٧ ٠

فمجمع نيقية ألغى ـ بقوة السلطان ـ عقيدة التوحيد رغم كثرة أتباعها ، وقرر عقيدة التثليث رغم قلة القائلين بها ، ووضع البذرة الأولى لتلك العقيدة بتقرير ألوهية الآب والابن (المسيح) ، واكتمل الثالوث المسيحي بتقرير ألوهية الروح القدس في مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م ، تلك المجامع التي تُعدُّ مصنعا للآلهة ٠

المطلب الثاني

التبشير في مرحلته الثالثة (الحروب الصليبية)

أولا : تعريفٌ بالحروب الصليبية :

أ . أهمية الحروب الصليبية ومفهومها :

١ . أهمية الحروب الصليبية : مما لاشك فيه أنه لابد لكل باحث في علاقة الغرب بالإسلام ، أن لا يغفل دراسة الحروب الصليبية ، التي امتدت قرنين من الزمان ، خَضَّبت فيها الأرض بالدماء ، وتركت أثرا نفسيا كبيرا على الإنسان الأوربي تجاه الإسلام والمسلمين ، وشكَّلت تجربة في تاريخ العروبة والإسلام ، ليست من التجارب المحدودة الأثر والنتائج ، وإنما هي تجربة كبرى خطيرة المغزى ، عميقة الأثر ، مليئة بالدروس والعظات ، مما يتطلب منا دراستها ، لنستفيد من أخطاء الماضي ونتجنبها ، ونواجه أخطار الحاضر ونتغلب عليها ، وبذلك نحفظ لأمة الإسلام حقوقها ، وللعروبة كيانها ، ونحقق لأبنائنا حياة حرة كريمة على أرض الآباء والأجداد ٠

فالحركة الصليبية من الحركات العالمية الخطيرة ، التي عُني بها الكُتّاب والمؤرخون في الشرق والغرب عناية لم تنلها حركة أخرى حتى وقتنا هذا ، ولعل السبب في هذا يرجع إلى ما لها من طابع خاص وأهمية بالغة في تطور وسير الأحداث ، وفي تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، فضلا عن ارتباطها الوثيق بحركة التوسع والاستعمار في العصر الحديث (١) ٠ الاستعمار وذيوله من المنصِّرين والمستشرقين ، وما خلفوه في بلاد العالم

---

(١) انظر : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، الطبعة الرابعة ، ١٩٨٦ م ، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة) ، ج ١ ص ٧ ٠ بين الإسلام والغرب ضراوة أحقاد ومرارة حصاد : الدكتور علي محمد عبد الوهاب ، ص ٧٥ ٠ العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى : جوزيف نسيم يوسف ، ١٩٨٣ م ، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع (الإسكندرية) ، مقدمة الطبعة الأولى ٠

العربي والإسلامي من تخريب مادي ونفسي ، ما هو إلا ثمرةٌ وحصادٌ مرٌّ لتلك الحركة الصليبية .

٢ ـ مفهوم الحروب الصليبية : للحروب الصليبية مفهومان : مفهوم واسع فضفاض ، ومفهوم اصطلاحي ضيق : فالحروب الصليبية بمعناها الواسع هي الحروب التي شنتها أوربا المسيحية بعامة ، ضد مخالفيها من جميع الأديان والملل والنحل والمذاهب باسم الصليب وتحت رايته ، لحماية الديانة الحقيقية . حسب زعمهم . من أرباب الديانات الأخرى والزنادقة والمنشقين من المسيحيين أنفسهم ، وهي بهذا المعنى قديمة جدا ، ولعل أول من استغل الروح الدينية وأعلنها حربا صليبية ضد أعداء الدولة والكنيسة ، هو هرقل [1] إمبراطور الروم بين سنتي ٦١٠ ـ ٦٤١ م ، ذلك أن هذا الإمبراطور حارب الدولة الفارسية سنة ٦٢٢ م ، وطردهم من البلاد التي احتلوها سنة ٦١٧ م في آسيا الصغرى

وبلاد الشام ومصر ، واستعاد الصليب المقدس وبيت المقدس [2] منهم ، وكان يضطرم بروح دينية عالية للقضاء على أعداء الدين ، وكانت الكنيسة تساعده وتسانده ،

([1]) هرقل : فلافيوس أغسطس (٥٧٥ ـ ٦٤١ م) ، إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية، بدأ صعوده إلى السلطة عام ٦٠٨، ويعتبر مؤسس السلالة الهراقلية التي استمرت بحكم الإمبراطورية البيزنطية حتى عام ٧١١ م ، وتشير المصادر الإسلامية إلى وجود رسالة من النبي محمد " صلى الله عليه وسلم " إلى هرقل ، يدعوه فيها إلى الدخول في دين الإسلام . انظر : الموسوعة الحرة .

([2]) بيت المقدس (القدس) : يبلغ عمر مدينة القدس نحو ٣٥ قرنا ، وأقدم اسم لها " أورشالم " يعني الإله شالم ، أي إله السلام لدى الكنعانيين ، وورد هذا الاسم في التوراة ، وأُطلق على المدينة اسم " يبوس " نسبة إلى اليبوسيين من بطون العرب الأوائل في الجزيرة العربية ، وهم سكان القدس الأصليون ، نزحوا مع من نزح من القبائل الكنعانية حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م . قام أحد الأباطرة الرومان بهدمها ، وأسس مكانها مستعمرة رومانية باسم " إيليا " ، ثم أعاد إليها الإمبراطور قسطنطين اسم " أورشليم " ، وقد تم فتحها على يد سيدنا

أعلنها حربا صليبية حقيقية ونجح فيها ، وكان الصليب رمزا لجيوشه ، ولذلك لُقب بأول الصليبيين . ثم توالت الحروب الصليبية ضد معتنقي الديانات الأخرىٰ وخاصة الإسلام .

كما شنت الكنيسة الكاثوليكية حروبا صليبية كثيرة ضد مخالفيها من المسيحيين والمنشقين ، وفعلت بهم الأفاعيل ، وذلك حين أتىٰ الإصلاح الديني ([1]) في أوربا أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، وانشقت الكنيسة علىٰ نفسها إلىٰ شيع وأحزاب ، حاربت هذه الفرق المتناحرة بعضها بعضا تحت لواء الصليب ، وكانت كل فرقة تغلي حماسا دينيا ، وتتعصب كل التعصب لمذهبها ، وخضَّبت صفحات التاريخ بدماء ضحاياها ، وسوَّدتها بأفعالها التي اقترفتها باسم الدين والمسيح " عليه السلام " ، وهما من كل ذلك براء ([2]) .

أما المعنىٰ الاصطلاحي الضيق للحروب الصليبية ، فيقصد به تلك الحروب التي شنتها أوربا ضد الإسلام بخاصة في بلاد الشام ومصر لاستئصال شأفة الإسلام

عمر بن الخطاب سنة ١٥ هـ ، وأخذت في العهد الإسلامي اسم " القدس " و " بيت المقدس " . انظر : معجم بلدان فلسطين : محمد محمد حسن شراب ، الطبعة العربية الثانية ، ٢٠٠٠ م ، الأهلية للنشر والتوزيع (عمان ـ الأردن) ، ص ٥٩٦ و ٥٩٧ .

([1]) الإصلاح الديني : شهد القرن الخامس عشر والسادس عشر في أوربا حركاتٍ إصلاحية دينية ، تزعمها دينيون ، وجَّهوا عدة انتقادات للكنيسة الكاثوليكية وطالبوا بإصلاح ديني يواكب التحولات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية. من أبرز دوافع الإصلاح الديني ، بيع صكوك الغفران من طرف الكنيسة الكاثوليكية ، حيث كانت الكنسية تبيع صكوك الغفران للفلاحين الذين يمثلون الفئة الفقيرة ، وعليهم الخضوع المطلق للكنسية . انظر : الموسوعة الحرة .

([2]) انظر : الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي : الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، ج ١ ص ١٩ . الاستشراق بين الجحود والإنصاف : الدكتور عبد الله سمك ، ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م ، ص ٦٣ و ٦٤ . وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي: محمد ماهر حمادة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م ، مؤسسة الرسالة (بيروت) ، ص ١٧ ـ ١٩٠ .

والمسلمين ، واسترجاع البيت المقدس وقبر المسيح " عليه السلام " ، وذلك خلال الفترة بين عامين ١٠٩٥ ـ ١٢٩١ م ، عندما قام البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ م بدعوة حكام أوربا وشعوبها بالكف عن الحروب المحلية ، والخروج بدلا من ذلك لمحاربة العالم الإسلامي ، والاستيلاء على خيراته ، وتخليص القبر المقدس من أيدي المسلمين ، مع وعد بغفران الخطايا لقتلى تلك المعارك ، بمقتضى التفويض الرباني الممنوح له ، فهي حرب مقدسة بتوجيه من الله الذي وكل هذه المهمة إلى البابا خليفته على الأرض ، وإما لأنها رحلة للحج إلى الأماكن المقدسة لغفران الخطايا ، وكان يطلق على الحملة المسلحة لأغراض الهجوم والدفاع " الحج الجماعي " ، وهي تعني الحملة الصليبية .

ولقد أتت هذه الدعوة بعد تلك الأخبار التي أخذت تصل إلى الغرب الأوربي عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين ، بعد استيلاء الدولة السلجوقية [١] على بيت المقدس سنة ١٠٧١ م ، ثم استيلائهم على أنطاكية سنة ١٠٨٥ م ، وطرد المسيحيين منها ، مما جعل الغرب يؤمن بأنه لابد من استخدام القوة لتأمين عملية الحج الجماعي إلى الشام [٢] .

---

[١] الدولة السلجوقية : الدولة السلجوقيَّة أو دولة السَّلاجقة العظام ، ويُطلَق عليها الاسم الأخير لتمييزها عن دول السَّلاجقة اللاَّحقة التي ظهرت بعد تفكّكها وانهيارها ، وهي واحدة من الدول الكبرىٰ في تاريخ الإسلام، وإقليم وسط آسيا، ولقد لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الدولة العباسية والحروب الصليبية والصِّراع الإسلامي البيزنطي. تأسَّست الدولة على يد سلالة السَّلاجقة، وهي سلالة تركيَّة ، حكمت الدولةُ السلجوقيَّة في أوج ازدهارها كافَّة إيران وأفغانستان ووسط آسيا ، فضلاً عن العراق والشام والأناضول غرباً ، وُصولاً إلى مشارف القسطنطينية . قامت الدولة منذ عام ١٠٣٧م (٤٢٩ هـ) عندما دخل مؤسّسها طغرل بك مدينة مرو في وسط آسيا، وحتى عام ١١٥٧م (٥٥٢ هـ) عند مقتل السلطان أحمد سنجر، الذي تفكَّكت الدولة بعده إلى ولايات منفصلةٍ حكمت أجزاءً مختلفة من وسط وغربي آسيا. انظر : الموسوعة الحرة .

[٢] الشام : اسم تاريخي لجزء من المشرق العربي يمتد على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط إلى حدود بلاد الرافدين. تُشكّل هذه المنطقة اليوم بالمفهوم الحديث كل من : سورية ولبنان والأردن وفلسطين التاريخية

فالحركة الصليبية حركة جامعة قام بها أهل الغرب الأوربي بكل أجناسه ضد الشرق العربي والشمال الإفريقي ، استجابة لنداء البابوية في روما وتحت إشرافها وبتوجيه منها ، بقصد الاستيلاء على الأراضي المقدسة وتأسيس مملكة لهم بها ، ثم العمل على تعزيز هذه المملكة وتوسيع حدودها ، والمحافظة عليها بشتى الطرق والوسائل ، حتى تكون نقطة ارتكاز لهم يتوسعون منها على حساب البلدان المجاورة ٠

وفي القرن التاسع عشر سقط القسم الأعظم من العالم الإسلامي بين براثن الاستعمار الغربي ، ولكنَّ فترة ما بين الحربين العالميتين شاهدت نضالا بطوليا خاضته الشعوب الإسلامية ضد المستعمرين ، وتمكنت بعد الحرب العالمية الثانية أن تسترد شخصيتها ، وأن تحقق استقلالها وتطرد المستعمرين ٠ فغيرت أوربا مخططاتها وقررت القضاء على الإسلام من الداخل بأيدي أبنائه ، وبدأت المرحلة الثالثة من مراحل الحروب الصليبية ، ومجالها الغزو الفكري على أيدي فئة منتحلة للإسلام ظاهرا ، ولكنها انسلخت منه ، وبدأت تعمل على هدمه باسم التمدن والتجديد ، لتحقق أوربا فكريا ما فشلت في تحقيقه عسكريا (١) ٠ فالحروب الصليبية في مفهومها العام تشمل صراع الحضارات القديم بين الشرق والغرب قبل أن يدخل الدين في حلبة هذا الصراع ٠ أما

وغيرها ، وسميت بذلك لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض فشبهت بالشامات ، وقيل سميت الشام بسام بن نوح " عليه السلام " ، وذلك أنه أول من نزلها ، فجعلت السين شينا لتغير اللفظ العجمي ، وأما حدُّها فمن الفرات إلى العريش من الديار المصرية ، وأما عرضها فمن جبل طيء من نحو القبلة إلى بحر الروم ، وبها من أمهات المدن : حلب وحماة وحمص ودمشق والبيت المقدس ٠ انظر : معجم البلدان : الحموي ، ج ٣ ص ٣١٢ ٠ الموسوعة الحرة ٠

(١) انظر : الاستشراق بين الجحود والإنصاف : الدكتور عبد الله سمك ، ص ٦٤ ٠ وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي : محمد ماهر حمادة ، ص ١٩ ـ ٢٣ ٠ الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ٢١ و ٢٢ ٠ التبشير بين النظرية والتطبيق : الدكتور مجدي فيم ، ص ٥٩ و ٦٠ ٠ العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى : جوزيف نسيم ، ص ٤٣ ٠ الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب : عزيز سوريال عطية ، ترجمة فيليب صابر سيف ، راجعه أحمد خاكي ، الطبعة الثانية ، دار الثقافة (القاهرة) ، ص ٧ ٠ بين الإسلام والغرب : الدكتور علي محمد عبد الوهاب ، ص ٨١ و ٨٢ ٠

الحـروب الصـليبية في مفهومهـا الخـاص والمقصـودة في هـذا البحـث ، فإنما تعـني تلـك الحروب العسكرية التي شنها الغرب المسيحي في القرون الوسطى على الشرق الإسلامي ، واستمرت قرنين من الزمان . وهناك الحروب الصليبية الحديثة في القرن التاسع عشر .

ب . زمن الحروب الصليبية وعدد حملاتها وموقف الكنيسة ورجالها منها :

١ . زمن الحروب الصليبية وعدد حملاتها : المشهور تاريخيا أن الحروب الصليبية بدأت في عام ١٠٩٥ م ، وانتهت في عام ١٢٩١ م ، وهذا لا يعني أنها بدأت دون ممهدات ، أو أنها انتهت دون أن يترتب عليها نتائج وآثار في الأحقاب التالية . لقد اعتبرت سنـة ١٠٩٥ م البداية لها ، لأنها السنة التي دعا فيها البابا أوربان الثاني إلى تلك الحروب في مـؤتمر كليرومنـت بفرنسـا في الفـترة مـن ١٨ إلى ٢٥ نـوفمبر سـنة ١٠٩٥ م ، حيـث استعرض البـابا قضـية الصـراع بـين أتبـاع المسـيح " عليـه السـلام " والإسـلام ، وتطلُّع الغرب إلى السيطرة على مقدرات العالم الإسلامي . كما اعتبرت سنة ١٢٩١ م النهاية لها ، لأنها السنة التي استولى فيها المسلمون على مدينة عكا ([1]) ، وهي آخر معاقل الغرب بالساحل الشامي ، ورغم ذلك قامت حملات أخرى تحمل نفس الطابع خلال القرن الرابع عشر ، والتي تعتبر امتدادا للفكرة الصليبية واستمرارا لها .

([1]) عكا : مدينة كنعانية ثم فينيقية . أسسها الجرجاشيون الكنعانيون الذين نزلوا بلاد الشام شرقي بحيرة طبريا ، وذلك في الألف الثالثة ق . م ، وجعلوا منها مركزاً تجارياً ودعوها باسم (عكو) أي الرمل الحار ، وأصبحت بعد ذلك جزءا من دولة الفينيقيين، ثم احتلها العديد من الغزاة كالإغريق والرومان والفرس والفرنجة الصليبيون . دخل العرب المسلمون عكا سنة ٦٣٦ م / ١٦ هـ بقيادة شرحبيل بن حسنة .وفي سنة ٢٠ هـ أنشأ فيها معاوية بن أبي سفيان داراً لصناعة السفن، ومنها انطلقت أول غزوة لجزيرة قبرص عام ٢٨ هـ . وهي من أقدم وأهم مدن فلسطين التاريخية ، وتقع اليوم في لواء الشمال الإسرائيلي – حسب التقسيم الإداري بعد حرب ١٩٤٨- على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، وتبعد عن القدس حوالي ١٨١ كم إلى الشمال الغربي. وتبلغ مساحتها ١٣,٥ كم٢ . انظر : الموسوعة الحرة .

فالتحديد التاريخي للحروب الصليبية لا يعني سوى الدور الحاسم النشط الواقع بين الدعوة للحملة الصليبية الأولى وطرد الصليبيين من بلاد الشام ، وإن كانت تلك الحروب لها جذور ومقدمات سبقت سنة ١٠٩٥ م ، واستمرت بعد استرداد عكا سنة ١٢٩١ م طوال القرن الرابع عشر وشطر من القرن الخامس عشر .

وهناك ثمان حملات صليبية فازت بأرقام عددية ، اتجهت أربعٌ منها نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) ، واثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة) ، وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) ، وأخرى نزلت بشمال إفريقية (الثامنة) ، ولا يعرف بالضبط لماذا فازت بعض الحملات بترقيم عددي في التاريخ دون البعض الآخر ، فمنذ وصول الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٧ م والجموع الصليبية تترى ، وبعض هذه الجموع فاقت في كثرة أعدادها وفي أهمية ما حققته من نجاحٍ الحملات الصليبية المألوفة التي فازت بأرقام في التاريخ ، ومع ذلك فإن معظم هذه الجموع لم تُمنح أرقاما تضفي عليها قسطا من الأهمية . وقد يبدو أن السر في تميُّز هذه الحملات ما حصلت من شهرة بسبب ما حققته من نجاح في الأراضي المقدسة (الحملة الأولى) ، أو ما منيت به من فشل ذريع استرعى الانتباه (الحملة الثانية) ، أو ما كان لها من اتجاه خاص جديد غير مألوف في غيرها من الحملات الصليبية (الحملة الرابعة والخامسة) ، أو لخروجها تحت زعامة بعض كبار ملوك الغرب (الحملة الثالثة والسادسة والسابعة والثامنة) ([1]) . فالحروب الصليبية بمفهومها الخاص المشهور استمرت قرنين من الزمان ، من نهاية القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلاديين ، وفازت ثمان حملات بالترقيم العددي لتلك الحروب لأسباب ميزتها عن غيرها .

([1]) انظر : الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ٢٢ و ٢٣ . العرب والروم واللاتين : جوزيف نسيم ، ص ٤٨ . محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٦٧ . التبشير بين النظرية والتطبيق : الدكتور مجدي فهيم ، ص ٦٠ و ٦١ . بين الإسلام والغرب : الدكتور علي عبد الوهاب ، ص ٨٤ .

٢ ـ موقف الكنيسة ورجالها من الحروب الصليبية : لم يكن عجيبا أن تقف الكنيسة من الإسلام موقف العداء ، بل العجيب أن تهادنه أو تتساهل معه ، ففي بقائه تدميرها ، وفي تدميره بقاؤها ، وليس عجيبا أن تلدَّ في خصومتها وتفجر في عدائها ، ولا ترعوي لخلق أو دين ، وترىٰ كل وسيلة شرعية طالما تؤدي الغرض وتخدم الهدف ، وكيف لا تصنع ذلك وقد اجتمع في الإسلام الوحي والعقل والعلم ، وكلها أمور جاهدت في رفضها ٠

هذا العداء كان له دور فعال في توجيه الكنيسة الكاثوليكية الغربية للحروب الصليبية ، وفي السيطرة عليها باسم الدين ، فهي التي حرصت علىٰ تشويه صورة الإسلام لدىٰ الغرب ، وهي التي حرَّضت علىٰ هذه الحروب ، بل اشترك رجالها في قيادتها ، وكان في كل حملة مندوب بابوي يعيَّن من قِبَلها ٠

وإذا نظرنا إلىٰ أدب القرون الوسطىٰ حول الإسلام ، نجد أن غالبيته وُضع من قِبل رجال الدين المسيحيين ، ليقع المسيحي الغربي في شراك الأكاذيب والشائعات ، التي روجت لها الكنيسة ظلما وبهتانا ، وكان هذا هو السبب في غرس روح العداء للإسلام في نفوس أجيال الغرب ، يتلقونها جيلا بعد جيل ٠ وكان من نتائج تلك الحملات التي قادتها الكنيسة لتشويه الإسلام : أن حُرم الغرب من نعمة تصحيح عقيدته ، وقامت الحروب الصليبية فأتت علىٰ الأخضر واليابس ، وانطبعت كتابات المستشرقين بطابع التبشير الصليبي المفعم بالعداء ، واستقرت الروح الصليبية في علاقة الغرب بالإسلام ، لتشكيل فصيلة دمه علىٰ مر الأجيال ([1]) ٠

([1]) انظر : فلسفة التبشير : الدكتور نوح الغزالي ، ص ٢٠٠ ٠ بين الإسلام والغرب : الدكتور علي عبد الوهاب ، ص ٨٩ ٠ الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري : الدكتور محمود حمدي زقزوق ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م ، دار المنار للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة) ، ص ٢٩ ٠ أوربا والإسلام : الدكتور عبد الحليم محمود ، ص ٤٢ ٠ العمل التنصيري في العالم العربي (ماجستير) : الدكتور عبد الفتاح إسماعيل غراب ، إشراف الدكتور ضو محمد بوني ، ١٣٧١ ـ ١٣٧٢ (ليبيا) ، ص ٣٤ ـ ٣٦ ٠

لم تكتف الكنيسة ورجالها بتشويه صورة الإسلام في أذهان الغربيين ، بل تولت البابوية التحريض على الحروب الصليبية وتوجيهها وترشيح قادتها والاشتراك فيها ، وخضوع ما يُفتح من البلاد لسيادتها .

ومن صور التحريض البابوي على هذه الحروب : بعد تعيين البابا غريغوريوس الثامن (١) ، حضر إليه رئيس أساقفة صور ، وطلب منه تسيير حملة صليبية لاسترداد القبر المقدس من أيدي المسلمين ، فأصدر البابا منشورا عاما لسكان أوربا ، أوضح لهم فيه عظم ما ألمَّ بالصليبيين إخوانهم ، ودعاهم إلى نجدتهم . ولما تولى البابا إينوسنت الثالث (٢) منصب البابوية سنة ١١٩٨ م ، دعا إلى حملة صليبية رابعة ، لمحو آثار حروب صلاح الدين في الشرق ، واسترداد بيت المقدس . وحرض نفس البابا على الحملة الصليبية الخامسة (٣) ، وأرسل إلى جميع ملوك أوربا منشورات بالاتحاد على تلك الحرب لتخليص قبر المسيح " عليه السلام " .

الإسلام والغرب (الماضي . الحاضر . المستقبل) : أبحاث وقائع المؤتمر العام التاسع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، " موقف المجتمعات الغربية من المسلمين : الدكتور محمد إبراهيم الجيوشي " ، ص ٤٢٤ .

(١) غريغوريوس الثامن : ترتيبه الرقمي في البابوية للكنيسة الكاثوليكية الثالث والسبعون بعد المائة ، وتم تنصيبه بابا للكنيسة الكاثوليكية في سنة ١١٨٧ م ، ودامت بابويته ٥٧ يوما . انظر : موقع تكلا .

(٢) إينوسنت الثالث : (١١٦٠ ـ ١٢١٦ م) ، بابا الكنيسة الكاثوليكية من 8 يناير 1198 وحتى وفاته . وهو واحد من أكثر البابوات نفوذًا وتأثيرًا في تاريخ البابوية، وقد كان له تأثير كبير على أنظمة الحكم المسيحية في أوروبا، حيث كان يرى أنه أعلى سلطة من كل ملوك أوروبا، وقد توسع في استخدام عقوبة الحرمان الكنسي وغير ذلك من العقوبات ، لإجبار الأمراء على الإذعان لقراراته . دعا إينوسنت الثالث إلى شن حملات صليبية ضد المسلمين في الأراضي المقدسة . انظر : الموسوعة الحرة .

(٣) الحملة الصليبية الخامسة : (١٢١٣ ـ ١٢٢١ م) ، كانت محاولة من أوروبا الكاثوليكية لإعادة السيطرة على القدس وبقية الأراضي المقدسة عبر السيطرة على الدولة الايوبية القوية في مصر . في سنة 1213 استأنف البابا إينوسنت الثالث الدعوة إلى حملة صليبية إلى الشرق، وأرسل وعَّاظ الحرب المقدسة إلى أنحاء أوروبا الكاثوليكية، ودامت حملة الوعظ زهاء سنتين، تحددت سنة 1217 موعداً لبداية الحملة الخامسة . انظر : الموسوعة الحرة .

وقام رجال الدين المسيحي بمساعدة الجنود الغربيين في جانبين : الأول : إعطاؤهم المعلومات والتقارير التي تسهل لهم مهمة التوغل داخل البلدان العربية ٠ الثاني : الاشتراك معهم في القتال ضد العرب والمسلمين ٠ وهكذا انحرفت تلك الجماعات الرهبانية عن مبادئها الأصلية ، وأصبح رجالها رجال دين ودنيا ، رجال يلبسون مسوح الرهبان ، وفي نفس الوقت يقاتلون من فوق ظهور الخيل ([1]) ٠

فالكنيسة ورجالها بما يحملون من عداء للإسلام ، كانوا الجندي المعلوم لإشعال تلك الحروب ، بداية بتشويه صورة الإسلام ، ثم التحريض على تلك الحروب ، وختاما بالاشتراك الفعلي في قيادتها ٠

ثانيا : دوافع الحروب الصليبية :

هناك دوافع أدت بغرب أوربا إلى القيام بحركة من أهم الحركات في تاريخ البشرية بوجه عام ، وفي تاريخ العصور الوسطى على وجه التحديد ، وبحروب كانت لها آثارها الخطيرة مدة طويلة من الزمن ، من أهم هذه الدوافع :

أ- الدافع الديني :

نظر المؤرخون الغربيون القدامى والمحدثون إلى الحروب الصليبية من زاوية واحدة هي زاوية الدافع الديني ، الذي حرك جيوش الغرب الصليبي تجاه المشرق الإسلامي ، متجاهلين ما فاضت به تلك الحروب من بواعث سياسية واقتصادية واجتماعية وحضارية ، بل إن أحدهم وصف الحروب الصليبية بأنها " حروب دينية ، استهدفت عن طريق مباشر أو غير مباشر الاستيلاء على الأراضي المقدسة بالشام " ، ولعلهم تعمدوا إضافة

([1]) انظر : تاريخ الحروب الصليبية : ستيفن رنسيمان ، ترجمة السيد الباز العريني ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١ م ، دار الثقافة (بيروت) ، ج ١ ص ١٤٧ و ١٤٨ ٠ الأخبار السنية في الحروب الصليبية : سيد علي الحريري ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م ، الزهراء للإعلام العربي (القاهرة) ، ص ٢١٥ و ٢١٦ و ٢٨٦ و ٣٤٠ ٠ الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ٢ ص ٧٣٣ ٠ العمل التنصيري في العالم العربي : الدكتور عبد الفتاح إسماعيل ، ص ٣٩ ٠

الصبغة الدينية البحتة عليها ، بقصد التمويه وإبعاد الشبهات عن الأهداف الأخرى للعداء الصليبي .

فالعامل الديني هو الدافع الأساسي الذي يُعزى إليه إزكاء روح العداوة بين أوربا والإسلام ، فلو كانت أسباب الصراع سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية كان من الممكن أن يهدأ الصراع ، ولم لا يكون العامل الديني أهم دوافع تلك الحروب ، وقد قامت لهدف أساسي ألا وهو تخليص قبر المسيح " عليه السلام " ، وإنقاذ الأراضي المقدسة من قبضة العرب ، فهو المكان الذي ولد فيه المسيح " عليه السلام " ، وقدسه بزيارته ، وبشَّر فيه برسالته ، وليس أدل على ذلك مما قاله مؤرخ صليبي عاصر أحداثها من أنها كانت من عمل الله ، وليست من عمل الإنسان . واصطباغ هذه الحركة بصبغة الدين لا يعني أنه كان العامل الوحيد الذي أدى إلى قيامها ، فللدين أثره في كثير من الحروب التي شاهدها العالم قديما وحديثا ، ولكنه ليس إلا وسيلة للتحريض وعاملا لتحقيق أهداف أخرى .

ولقد ظلت البابوية ترغب في نشر الكاثوليكية في جميع أنحاء العالم ، وإخضاع الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية لزعامتها ، وأخيرا جاء استنجاد الأباطرة البيزنطيين بالغرب الأوربي ، ليتيح فرصة ذهبية للبابا للظهور في صورة الزعيم الأوحد للشعب المسيحي كافة ، ولمحاولة إدماج الكنيسة الشرقية في الكنيسة الغربية تحت زعامة خليفة القديس بطرس ، على أن يتم ذلك كله تحت ستار محاربة المسلمين ، وحماية البيزنطيين ، واسترداد الأراضي المقدسة في فلسطين . وكانت الحملات الصليبية كلها تحت إشراف الكنيسة الرومانية ، واشترك ممثلو البابوات في تلك الحملات الصليبية نيابة عنهم وتوكيدا لإشرافهم عليها ، كما بشَّر بابوات الكنيسة بتلك الحملات ، وأحالوا مساجد الشرق إلى كنائس لاتينية على المذهب الكاثوليكي .

ولا ننسى أنه منذ القرون الأولى للهجرة النبوية ورقعة الإسلام في اتساع مستمر ، وقد بلغ المدُّ الإسلامي مداه في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر

الميلادي) ، فقد ثبتت أركانه في الشرق ببلاد الصين ، وفي الغرب بقلب فرنسا (١) ، وأثار هذا التقدم حفيظة الغرب ، الذي أعلن عن رغبته في عدم السماح لدين آخر غير المسيحية بالبقاء في أوربا ، وبدأ فأشعلها حربا شعواء على المسلمين في أوربا ، وذاق مسلمو الأندلس أصحاب الحضارة الراقية والأيادي البيضاء مرارة التعصب الصليبي ، فسقطت المدن الأندلسية في أيدي الصليبيين الواحدة تلو الأخرى ، ونجح الأوربيون في القضاء على المسلمين في أوربا ، ولم يكتفوا بذلك ، بل علت الأصوات في الغرب بدعوة أهل أوربا لاقتحام قلب العالم الإسلامي والاستيلاء على بيت المقدس (٢) .

فالحروب الصليبية كانت لوقف المدِّ الإسلامي ، وهذا ما صرَّح به مؤلف غربي مسيحي موضوعي ، قائلا :

" تبدو الحملة الصليبية من الناحية التاريخية بمثابة رد متأخر على الفتوحات العربية الإسلامية ، ففي بداية القرن السابع (الميلادي) قام في غرب الجزيرة العربية بمكة والمدينة رجل هو محمد بتبليغ رسالة ، أصبحت فيما بعد قاعدة لديانة جديدة هي الإسلام ، وقد حقق من جهة أخرى أول وحدة سياسية شملت كل العرب تقريبا ، وما أن توقف عام ٦٣٢ م (وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم) حتى قام أتباعه بفتوحات

---

(١) فرنسا : جمهورية دستورية ذات نظام مركزي وبرلماني ذي نزعة رئاسية، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٦٦ مليون نسمة، وهي تقع في أوروبا الغربية . عاصمتها باريس، ولغتها الرسمية هي الفرنسية ، وعملتها اليورو . فرنسا بلد قديم يعود تكوينه للعصور الوسطى، وتعتبر إحدى المناطق المهمة في أوروبا منذ العصور الوسطى، وقد وصلت فرنسا إلى أوج قوتها خلال القرن ١٩ وأوائل القرن ٢٠، إذ امتلكت ثاني أكبر إمبراطورية استعمارية في سنة **1950**. وهي إحدى الدول المؤسسة للاتحاد الأوروبي، وأحد الأعضاء الخمسة الدائمين في مجلس الأمن الدولي، كما أنها عضو في العديد من المؤسسات الدولية انظر : الموسوعة الحرة .

(٢) انظر : العرب والروم واللاتين : جوزيف نسيم ، ص ٦٢ و ٦٧ ـ ٧٠ . الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ٢٥ و ٢٩ . محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٦١ و ٦٢ . بين الإسلام والغرب : الدكتور علي عبد الوهاب ، ص ٨٥ . التبشير الخطر الداهم : الدكتور عبد الكريم بلال ، ص ٣٨ و ٣٩ . التبشير بين النظرية والتطبيق: الدكتور مجدي فهيم ، ص ٦٣ ـ ٦٥ .

تدفعنا إلى الاعتراف بأن التاريخ لم يشهد لها مثيلا ، إذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع رقعتها وطابعها النهائي ... وبرغم أنه لم يتحول إلى الإسلام كل أهالي البلدان التي وصلها الفتح ... فقد كان الإسلام سائدا في كل الأصقاع ، وبدأت عملية الدخول في الإسلام تتزايد ، مما أدى بعد بضعة أجيال إلى ظهور أبهى الحضارات وأغناها في بداية العصور الوسطى ، وكانت أغلبية هذه البلدان . حتى الذين لم يدخلوا في الإسلام . قد تبنوا اللغة العربية كلغة مشتركة فيما بينهم " ([1]) .

وهذه شهادة حق وصدق بأن الإسلام أقام وحدة سياسية عظيمة ، وقام أتباعه بفتوحات لم يشهد لها التاريخ مثيلا ، وشاد حضارة من أبهى الحضارات وأغناها ، في وقت كانت فيه أوربا تعيش في ظلام العصور الوسطى ، فكان سببا في إنارة أوربا وحضارتها ورقيها ، ولكنها تناست كل ذلك وقررت أن تقطع يد النعمة تلك ، وتوقف هذا المد الإسلامي الذي يتمشى مع الفطر المستقيمة والعقول السليمة ، من خلال تلك الحروب الصليبية التي أتت على الأخضر واليابس .

ب . الدافع الاستعماري والسياسي :

الحروب الصليبية هي في الواقع حروب التوسع والاستعمار ضد دولة الروم والمسيحيين الشرقيين ، الذين كانوا ينظرون إليهم باعتبارهم هراطقة ملحدين ، وهي في ذات الوقت حروب التوسع والاستعمار ضد العرب في المشرق والمغرب ، الذين رأوا فيهم خطرا يتهددهم ، فعملوا على القضاء على استقلالهم ، وتفتيت وحدتهم ، وإعاقة تكتلهم ، تحقيقا لاتجاهاتهم الاستعمارية .

وقد اعترف بعض المؤرخين الغربيين الذين اشتهروا بتعصبهم لبني جنسهم ، اعترفوا صراحة بذلك في كتاباتهم : قال مؤلف كتاب " حصيلة التاريخ " : " إن الحروب الصليبية أدت إلى أول توسع استعماري للغرب المسيحي في الشرق العربي على حساب

([1]) الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية : كلود كاهن ، ترجمة أحمد الشيخ ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٥ م ، سينا للنشر (القاهرة) ، ص ٢٥ و ٢٦ .

الإسلام " . وقال مؤلف كتاب " العرب في التاريخ " : " إن تلك الحروب كانت أول محاولة مبكرة في التوسع الاستعماري للغرب ، تُحركها اعتبارات مادية دنيوية ، ويغلفها الدين كعامل نفساني " .

فالحركة الصليبية حركة استعمارية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان : هي استعمار عسكري ، اتخذ من القوة المسلحة وسيلة لتحقيق أهداف العدوان ، وهي استعمار سياسي يستهدف سلب البلاد حريتها وتفتيت وحدتها وإعاقة نموها ، وهي استعمار استيطاني يهدف إلى الاستيلاء على الأراضي واستعباد النفس البشرية ، وهي استعمار ثقافي يسعى إلى فرض الحضارة الغربية اللاتينية على العالم العربي ، وهي استعمار ديني يتمثل في محاولات أوربا نشر الكاثوليكية في العالم العربي عن طريق الحروب الصليبية والبعثات التنصيرية ، وأخيرا هي استعمار اقتصادي استغلالي مظهره نهب ثروات البلاد والاستئثار بخيراتها من موارد وخامات أولية وفيرة ([1]) .

إن الحروب الصليبية حركتها المطامع المادية والفوز بالسلطان والنفوذ ، وفي خطبة أوربان الثاني إشارات صريحة إلى فرص الربح المادي ، والنجاح في تكوين الإمارات والممالك في منطقة الشرق العربي على حساب أهلها وأصحابها . وفي الحملة الأولى برز بعض الزعماء الإقطاعيين الذين اشتركوا فيها لا لتخليص القبر المقدس ، وإنما لتأسيس إمارات لهم في الشرق ، وقد أسسوا تلك الإمارات التي تبعد جغرافيا عن فلسطين ([2]) ، قبل أن تصل الجيوش الصليبية الرئيسة إلى بيت المقدس .

([1]) انظر : العرب والروم واللاتين : جوزيف نسيم ، ص ١٠٣ و ١٠٤ . التبشير الخطر الداهم : الدكتور عبد الكريم حسن بلال ، ص ٤١ و ٤٢ . محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٦٢ .

([2]) فلسطين : بلاد الفلسطينيين ، وهم قبيلة غير سامية أتت من كفتور، ازدادت قوة وسيطرت على العبرانيين (١ صم ص ١٣ و ١٤ ١٧) ، وحكمت العبرانيين إلى أن غلبها داود (٢ صم ٥ : ١٧ ٠٠٠ ، ٨ : ١) . انظر : أطلس الكتاب المقدس ، ص ٢١ .

وقد أثبتت الأحداث أنه كلما ازداد اقتراب أولئك القوم من بلدان الشرق العربي ، كلما وضح للعيان أن إنقاذهم لكنيسة القيامة ليس إلا اعتبارا ثانويا يُخفي وراءه الاتجاهات الحقيقية الاستعمارية للفكرة الصليبية ، وقد تمثَّل ذلك في النزاع الدائم بين القادة والرجال البارزين فيها حول السيطرة على البلدان التي يفتحونها .

وكانت الحملة الصليبية الرابعة مثلا حيا على انعدام الباعث الديني من ناحية ، وثبوت الاتجاه التوسعي للحركة الصليبية من ناحية أخرى ، حيث استحالت هذه الحملة إلى عصابات ناهبة استقرت في القسطنطينية ، وأسست مملكة لاتينية بها استمرت من ١٢٠٤ م ـ ١٢٦١ م ، وكانت هذه المملكة هي ثمرة أطماع اللاتين ببيزنطة . يقول أحد المؤرخين الغربيين : إنه إذا كانت الحملات الصليبية الأولى والثانية والثالثة قد أدت إلى أول توسع استعماري للغرب المسيحي في الشرق على حساب الإسلام ، فقد تحول الاستعمار اللاتيني في الحملة الرابعة شطر الدولة البيزنطية .

ومن هنا يلمس الدارس لتاريخ هذه الحركة وضوح الاتجاهات التوسعية الاستعمارية ، وتدخُّل المصالح المادية فيها ، فقادة هذه الحملات من الحكَّام وكبار رجال الإقطاع ، كانت تداعبهم الآمال العراض في توسيع رقعة أملاكهم ، وتأسيس مستعمرات جديدة لهم في الشرق ، بعد أن ضاق الغرب بمطامعهم ، وكانت البابوية على رأس هذه الطوائف (١) .

فالدافع السياسي للحروب الصليبية يرجع إلى حرص الملوك والأمراء على خدمة مصالحهم السياسية ، فملوك الغرب الذين شاركوا في هذه الحرب ، خرج معظمهم تحت ضغط البابوية وإلحاحها بل تهديدها ، لما لها من سلطان عظيم ، وأن ملكا من ملوك الغرب لا يستطيع أن يعصى لها أمرا أو يرد لها طلبا ، وإلا تعرض للحرمان والطرد من الكنيسة ورحمتها ، فلا يستطيع الاحتفاظ بعرشه أو بولاء شعبه ، وأبرز مثال على

---

(١) انظر : العرب والروم واللاتين : جوزيف نسيم ، ص ٧٣ ـ ٩١ .

ذلك هو الإمبراطور فردريك الثاني ([1]) ، الذي أخذ البابوات واحد تلو الآخر يلح عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق المسلم لغزوهم ، ولم يجد الإمبراطور دافعا يدفعه للقيام بتلك الخطوة العسكرية ، وظل يماطل مرة بعد أخرى ، حتى توعدته البابوية وهددته بإصدار قرار الحرمان ضده ، وعندئذ خرج الإمبراطور مكرها على رأس فئة قليلة من رجاله متجهة إلى الشام ، وليس له غرض سوى حفظ عرشه .

هذا عن الملوك ، أما الأمراء الذين أسهموا في الحركة الصليبية ، فمعظمهم كان يجري وراء أطماع سياسية ، لم يستطيعوا إخفاءها قبل وصولهم إلى الشام وبعد استقرارهم فيها ، والمعروف أن النظام الإقطاعي ارتبط دائما بالأرض ، وبقدر ما يكون الإقطاع كبيرا والأرض واسعة ، بقدر ما تكون مكانة الأمير سامية في المجتمع ، وفي ظل هذا النظام كانت المشكلة الكبرى التي يمكن أن تواجه الأمير هي عدم وجود إقطاعٍ أو أرض له ، مما يجعله عديم الأهلية مسلوب النفوذ . وقد أدت طبيعة النظام الإقطاعي في الغرب الأوربي إلى وجود عدد كبير من الأمراء بدون أرض ، لأنه من القواعد الأساسية في هذا النظام أن الابن الأكبر وحده هو الذي يرث الإقطاع ، مما جعل بقية الأبناء الأمراء المحرومين من الأرض يتحايلون للتغلب على هذه العقبة عن طريق الزواج من وريثة إقطاعٍ أو الالتجاء إلى العدوان والحرب للحصول على إقطاع ، فلبَّى هؤلاء الأمراء المحرومون نداء البابوية ، واشتركوا في الحروب الصليبية ، لعلهم ينجحون في تأسيس إمارات لأنفسهم في الشرق ، تعوضهم عما فاتهم في الغرب ، حتى أولئك الأمراء الذين كانت لهم إقطاعيات في بلادهم الأصلية ، وجدوا في المشاركة في تلك الحروب فرصة كبيرة

([1]) فريدريك الثاني : (١١٩٤ ـ ١٢٥٠ م) ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ١٢٢٠ ـ ١٢٥٠ م . تميز عهده بالصراع مع البابوية. قاد الحملة الصليبية السادسة1228-1229 ، وتوَّج نفسه ملكا على القدس عام ١٢٢٩. حكم فريدريك مملكة صقلية ، وأسس جامعة نابولي عام ١٢٢٤م . وقد أعجب فريدريك الثاني بالثقافة العربية الإسلامية وشجع على دراستها والترجمة منها. وأصبحت صقلية في عهده مركزًا هامًا لانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوروبا ، وقد أغضب اهتمامه هذا رجال الدين النصرانيين فاتهموه بالهرطقة والخروج عن الدين0 انظر : الموسوعة الحرة .

لتحقيق إمارات أكثر ومجد أكبر وجاه أعظم ([1]) • فالدافع الاستعماري والسياسي التوسعي هو الدافع الحقيقي لتلك الحروب ، ولم يكن الدين إلا وسيلة للوصول إلى هذا الهدف ، وستارا يخفون وراءه أطماعهم المادية •

ج . الدافع الاقتصادي والاجتماعي :

أثبتت الأبحاث الحديثة قوة العامل الاقتصادي وأهميته في تحريك كثير من الحروب الهامة في التاريخ • وتشير الوثائق إلى سوء الأحوال الاقتصادية في غرب أوربا ([2]) أواخر القرن الحادي عشر ، حيث كانت هناك أزمة اقتصادية عند الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، وأن هذه الأزمة كانت طاحنة ، بلغ من قسوتها أنها ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش ، وزاد من سوء تلك الأحوال في ذلك الوقت كثرة الحروب المحلية بين الأفراد الإقطاعيين ، وهي الحروب التي لم تنجح الكنيسة أو الملوك في وقفها ، مما أضر بالتجارة وطرقها والزراعة وحقولها أبلغ الضرر ، وفتحت الحروب الصليبية أمام أولئك الجوعى في غرب أوربا بابا جديدا للهجرة والحياة ، وطريقا للخلاص من الأوضاع الاقتصادية التي عاشوا فيها داخل أوطانهم ، ولم يكن عجبا أن ضمت الحملة الصليبية الأولى جموعا غفيرة من المعدمين والفقراء والمساكين وطريدي القانون ، وجميعهم كانوا يفكرون بدافع من بطونهم ، لا بوحي من دينهم ، بدليل ما ارتكبوه طوال طريقهم إلى القسطنطينية من أعمال السلب والنهب ضد الشعوب المسيحية التي مرُّوا بأراضيها ، مما يتعارض مع أي وازع ديني ، وفي هذا يقول أحد المؤرخين المحدثين عن الحروب الصليبية :

([1]) انظر : التبشير بين النظرية والتطبيق : الدكتور مجدي فهيم ، ص ٧١ • الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ٣٤ و ٣٥ • بين الإسلام والغرب : الدكتور علي عبد الوهاب ، ص ٨٥ •

([2]) يؤكد المؤرخ جيوبرت أن فرنسا بالذات كانت تعاني من مجاعة شاملة قبيل الدعوة للحملة الصليبية الأولى ، فندر وجود الغلَّات وارتفع أثمانها ارتفاعا فاحشا ، مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز ، وهذا يفسر أن نسبة الصليبيين الفرنسيين المشاركين في الحملة الصليبية الأولى فاقت نسبة الوافدين من أي بلد آخر من بلدان غرب أوربا • انظر: الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ٣٠ •

إنها أول تجربة في تاريخ الاستعمار الغربي ، قامت بها الأمم الغربية خارج حدود بلادهم ، لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق .

فالحروب الصليبية كانت واسطة وسبيلا أمثل لتحسين حال أهل الغرب ، حيث كانت حاجتهم وفاقتهم شديدة بسبب سوء المواسم الزراعية ، وقلة الحاصلات وزيادة عدد السكان ، كما أوجدت تلك الحروب سوقا تجارية واسعة لأهل الغرب في بلاد الشرق ، وأخذوا منه ما يحتاجون من غذاء ولباس ، واشترك عدد كبير من تجار المدن الغربية في الحروب الصليبية للسيطرة على الطرق التجارية للسلع الشرقية ، التي أصبحت مصدر ثراء عظيم للعاملين في حقل التجارة ([1]) وبهذا اصطبغت الحركة الصليبية من أول أمرها بصبغة اقتصادية ، فكثير من المدن والجماعات والأفراد الذين أيدوا تلك الحركة وشاركوا فيها ، نزحوا إلى الشرق جريا وراء المال وجمع الثروات .

أما الباعث الاجتماعي فقد تألَّف المجتمع الأوربي في العصور الوسطى من ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين من الكنيسة ، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان ، وطبقة الفلاحين المزارعين . وكانت الطبقة الأولى والثانية تمثل الهيئة الحاكمة ، في حين ظلت طبقة الفلاحين تمثل الأكثرية المغلوبة على أمرها ، والتي كان على أفرادها أن يعملوا ويكدوا ليسدُّوا حاجة الطبقتين الحاكمتين .

والواقع أن آلاف الفلاحين عاشوا في غرب أوربا عيشة منحطة ، وقضوا معظم حياتهم محرومين من أبسط مبادئ الحرية الشخصية ، وعاشوا مشتغلين بمجموعة ضخمة من الالتزامات والخدمات ، فكان عليهم أن يقدوا خدمات معينة للسيد الإقطاعي مثل فلاحة أرضه الخاصة ، فضلا عن تسخيرهم في أعمال شاقة مثل إنشاء طريق أو حفر خندق أو إصلاح جسر ، وكان عليهم دفع مقررات معينة مثل ضريبة الرأس التي يدفعونها سنويا رمزا للتبعية .

([1]) انظر : الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ٣٠ ـ ٣٢ . التبشير بين النظرية والتطبيق : الدكتور مجدي فهيم ، ص ٧٠ . التبشير الخطر الداهم : الدكتور عبد الكريم بلال ، ص ٤٠ .

وهكذا ظلت الأغلبية العظمى من الناس في غرب أوربا يحيون حياة مليئة بالذل والهوان ، في الوقت الذي علت فيه الدعوة للحروب الصليبية ، فوجدت تلك الألوف من البؤساء فرصتها قد حانت للتخلص مما كانت ترسف فيه من ذل العيش ونكد الدنيا ، فإذا ماتوا في تلك الحروب الصليبية الجديدة ، فإن الموت كان أحبَّ إليهم من حياة الجوع والذل والعبودية ، وإن وصلوا إلى الأراضي المقدسة سالمين ، فإن حياتهم الجديدة لن تكون بأي حال أسوأ من حياتهم التي يحيونها فعلا في بلادهم الأصلية ، ولو توفرت لتلك الجموع في بلادها حياة حرة وقدرا مناسبا من كرامة العيش ، لما غامروا بترك أوطانهم جريا وراء وعود خيالية أسرفت الكنيسة في تقديمها ([1]) .

فالدافع الاجتماعي نشأ نتيجة التفاوت الطبقي والشرائح الاجتماعية المتباينة ، أناسٌ في أعلى عليين ويملكون كل شيء وهم الأقلية ، وأناس في أسفل سافلين ولا يملكون شيئا وهم الأكثرية المطحونة ، التي قدمت لهم الحروب الصليبية طوق النجاة أملا في حياة إن لم تكن أفضل فلن تكون كالتي عاشوها في بلادهم ، هذا إلى جانب التصدع الاجتماعي الرهيب الذي نشأ نتيجة الحروب الأهلية الطاحنة ، بسبب ذلك التفاوت الطبقي ، فرأبوا ذلك الصدع بتوجيه الأنظار وتوحيد الطاقات نحو الشرق الإسلامي لقتاله والسيطرة على كنوزه وخيراته .

ثالثا : دور الأباطرة والبابوات والرهبان في إشعال الحروب الصليبية :

أ - خطاب إمبراطور الدولة البيزنطية ودعوى اضطهاد المسلمين للمسيحيين والرد عليها :

لقد اشترك أباطرة الرومان وبابوات الكنيسة في إشعال الحروب الصليبية وإطلاق شرارتها الأولى ، وكانت البداية من إمبراطور الدولة البيزنطية ، الذي أرسل رسالة سنة ١٠٨٨ م إلى أمير الأراضي الغربية المسيحية ، يبين له فيها ما يعانيه

([1]) انظر : الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ٣٢ - ٣٤ . بين الإسلام والغرب : الدكتور علي عبد الوهاب ، ص ٨٥ .

المسيحيون في إمبراطوريته من اضطهاد المسلمين السلاجقة ، ويستصرخه بسرعة إرسال قواته لإنقاذ القسطنطينية والمسيحيين والقبر المقدس قبل فوات الأوان ، وهذه مقتطفات من رسالته :

من إمبراطور القسطنطينية إلى السيد الأجلِّ اللورد روبرت أمير الأراضي الغربية ، وإلى جميع رجال المملكة المؤمنين بالعقيدة المسيحية . أيها السيد العظيم حامي العقيدة المسيحية ، أود أن أحيطك علما بما وصل إليه تهديد السلاجقة المسلمين للإمبراطورية الإغريقية المسيحية المقدسة ، فهم يعملون فيها السلب والتخريب كل يوم ، ويتوغلون في أراضيها دون انقطاع ، وكم من مذابح وتقتيل وجرائم تفوق حد الوصف يقترفونها ضد المسيحيين الإغريق . لقد استولى أولئك القوم على كل البلاد الواقعة بين بيت المقدس وبلاد الإغريق ، ولم يبق الآن تقريبا سوى القسطنطينية . لذا أستخلص بمحبة الله وباسم جميع المسيحيين الإغريق أن تمد لنا وللمسيحيين الإغريق يد العون والمساعدة ، وذلك بتقديم جميع الجنود المسيحيين من كبير وصغير ، يجب أن تحاربوا بكل ما أوتيتم من قوة وشجاعة قبل سقوط القسطنطينية ، ومن الأفضل أن تكون القسطنطينية في حوزتكم وليست في قبضة الأتراك ، لأن بها أثمن آثار السيد ، وهي الصليب الذي صلب عليه ، والسوط الذي ضرب به ، والرداء الذي ألبسوه إياه ، وتاج الشوك ، وبقايا أجساد كثير من القديسين . فإذا لم يحفزهم كل هذا للقتال ويفضلون عليه الذهب ، فسوف يجدونه في هذا المكان أكثر مما يوجد في العالم كله ، فكنائس القسطنطينية ملأى بكنوز من الفضة والذهب والحلي والأحجار الكريمة والمنسوجات الحريرية التي تستخدم في صنع الأردية والملابس التي تكفي جميع كنائس العالم . سارعوا إذن بكامل رجالكم ، وحاربوا بكل ما لديكم من قوة ، حتى لا تقع كل هذه الكنوز والنفائس في أيدي الأتراك ، إذ يُنتظر وصول ستين ألفا منهم بين وقت وآخر ، ولهذه الأسباب مجتمعة اعملوا قبل فوات الأوان كيلا تفقدوا مملكة مسيحية ، وما هو أهم

وأعظم قبر المسيح ، وسوف يكون جزاؤكم ليس الدنيوي في هذا العالم ، وإنما ثواب الآخرة عند الله ([1]) .

هذه الرسالة تحريض للغرب المسيحي على تحريك جيوشه في أسرع وقت ممكن لبدء الحروب الصليبية ، بدعوى إنقاذ مسيحي الشرق من اضطهاد المسلمين لهم ، وهذا ادعاء باطل لا يتفق وروح الإسلام ، وما أحاط به القرآن الكريم اليهود ([2]) والنصارى ([3]) من رعاية وعناية ، حيث وصفهم بأنهم " أهل الكتاب " ، وأمر الله رسوله " صلى الله عليه وسلم " بدعوتهم إلى دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأطلقت السنة النبوية مصطلح " أهل الذمة " على اليهود والنصارى المقيمين بدار الإسلام ، أي أن لهم ذمة الله وذمة رسوله " صلى الله عليه وسلم " ، واستعمل الفقهاء التعبيرين السابقين (أهل الكتاب وأهل الذمة) كتعبيرين مترادفين ، وأطلقوا تعبير " المستأمنين أو المعاهدين " على من يدخلون دار الإسلام من الأجانب بإذن من ولي الأمر أو بمقتضى معاهدة أو عرف دولي ، وظل الفقهاء يستعملون هذه الألفاظ الراقية ذات المغزى العظيم ، ولم يستعملوا أبدا تعبير الأقلية الدينية لوصف اليهود والنصارى .

([1]) انظر : وثائق الحروب الصليبية : محمد ماهر حمادة ، ٩٧ ـ ٩٩ .

([2]) اليهود : المنحدرون من إبراهيم " عليه السلام " ، والمعروفون بالأسباط من بني إسرائيل ، الذين أرسل الله إليهم موسى " عليه السلام " ليكون لهم نبيا . انظر : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة : مانع بن حماد الجهني ، ج ١ ص ٥٠٠ .

([3]) النصارى : القوم الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى " عليه السلام " وكتابهم الإنجيل ، والنصرانية هي الملة التي يزعم أهلها أنها الدين الذي جاء به عيسى " عليه السلام " ، نسبة إلى بلدة الناصرة من أرض الجليل بفلسطين ، موطن عيسى " عليه السلام " ، والمكان الذي ولد فيه ، وابتدأ فيه دعوته . انظر : الملة والنحلة : حمدي عبد العال ، ص ٨٠ . العلاقة بين الدين والدولة في اليهودية والنصرانية والإسلام (دكتوراه) : الدكتور ماجد عبد السلام إبراهيم ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م ، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ـ قسم الأديان والمذاهب ، ص ٣١٧ و ٣١٩ . دراسات في الأديان : اليهودية والنصرانية : سعود بن عبد العزيز الخلف ، ص ١٠٣ .

ويُثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائما في كنف الدولة الإسلامية عيشة هانئة ، تشهد عليها الرسالة التي بعث بها ثيودسيوس (بَطْرِيق بيت المقدس) سنة ٨٦٩ م إلى زميله أجتاتيوس (بَطْرِيق القسطنطينية) ، والتي امتدح فيها المسلمين وأثنى على قلوبهم الرحيمة وتسامحهم المطلق ، حتى أنهم سمحوا للمسيحيين ببناء مزيد من الكنائس دون أي تدخل في شئونهم الخاصة ، وقال بطريق بيت المقدس بالحرف الواحد في رسالته : " إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أي أذى أو تعنت " .

وهناك عدد من المؤرخين الأوربيين المسيحيين قرروا في صراحة تامة أن المسلمين السلاجقة لم يغيروا شيئا من أوضاع المسيحيين في الشرق ، وأن المسيحيين الذين خضعوا لحكمهم صاروا أسعد حالا من إخوانهم الذين عاشوا في قلب الإمبراطورية البيزنطية ذاتها ، يقول أحد هؤلاء المؤرخين : كان انتشار الإسلام بمثابة تحرير لسكان البلاد التي وصل إليها ، ولم ينظروا إليه على أنه تهديد لعقيدتهم ، بل لقد وُجد مسيحيون أقروا بصدق الرسالة التي بلغها محمد " صلى الله عليه وسلم " ، وكان الخلفاء المسلمون يعيِّنون المسيحيين في الوظائف الإدارية العليا ، وبناء على ذلك كانت أوضاع غير المسلمين داخل الدولة الإسلامية في حالة لائقة .

وإن كان التاريخ يشير إلى تعرض المسيحيين أحيانا في بعض البلدان الإسلامية لنوع من الاضطهاد ، إلا أن هذه حالات فردية شذَّت عن القاعدة العامة التي حرص الإسلام دائما عليها ، وهي التسامح المطلق مع أهل الكتاب ، وهذا ما أكده أحد المؤرخين الأوربيين بقوله : إن حالات الاضطهاد الفردية التي تعرض لها المسيحيون في البلدان الإسلامية في القرن العاشر بالذات ،لا يصح أن تتخذ بأي حال سببا حقيقيا للحركة

الصليبية ، لأن المسيحيين بوجه عام تمتعوا بقسط وافر من الحرية الدينية وغير الدينية في ظل الحكم الإسلامي ([1]) .

فدعوىٰ اضطهاد المسلمين للمسيحيين التي ضمَّنها إمبراطور الدولة البيزنطية رسالته إلىٰ الغرب المسيحي لسرعة نجدته ، إنما هي دعوىٰ باطلة كذبتها أقوال المؤرخين الأوربيين المسيحيين أنفسهم ، ولكن الكنيسة وبابواتها بدأت تشجع علىٰ هذه الحروب بل شاركت فيها ، ليس تصديقا لهذه الدعوىٰ وإنما لدوافع أخرىٰ . سبق تفصيلها . ولم يكن الاضطهاد واحدا منها .

ب ـ خطاب البابا أوربان الثاني ([2]) والتحريض علىٰ بدء الحروب الصليبية لنجدة مسيحي الشرق :

المسئول الأول عن قيام الحروب الصليبية هو البابا أوربان الثاني ، ويَنسب إليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له الدور الرئيس في تلك الحروب ، حيث بذل جهدا واضحا في سبيل الدعوة لها في الأشهر السابقة لعقد مؤتمر كليرمونت (مدينة وسط فرنسا ، وتنقسم إلىٰ قسمين أحدهما جبلي مرتفع والثاني سهل منبسط) ، وتوَّج عمله بإعلان مولدها بالخطبة التي ألقاها في ذلك المؤتمر ، ثم واصل التبشير بها والاستعداد

([1]) انظر : الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ٢٦ ـ ٢٨ . الإسلام والغرب : المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ، ص ١٦٦ . بين الإسلام والغرب : الدكتور علي عبد الوهاب ، ص ٨٣ . الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية : كلود كاهن ، ٣٣ ـ ٣٥ و ٧٠ .

([2]) أوربان الثاني : ولد البابا أوربان الثاني سنة ١٠٤٢ م ، وتلقىٰ تعليمه في المدرسة الكاتدرائية في ريمس ، وأقام بها حتىٰ صار قسا ثم رئيسا لشمامسة الكاتدرائية ، عينه البابا جريجوري السابع كاردينالا وأسقفا في أوستيا ، ثم كان مندوبا للبابا بين سنتي ١٠٨٢ ـ ١٠٨٥ م في فرنسا وألمانيا ، واجتمع مجلس الكرادلة في مارس سنة ١٠٨٨ م واختاروه بابا لهم ، وفي سنة ١٠٩٥ م أضحىٰ أوربان الثاني الأب الروحي للعالم المسيحي في الغرب ، وتوفي في روما سنة ١٠٩٩ م . انظر : تاريخ الحروب الصليبية : ستيفن رنسيمان ، ج ١ ص ١٦١ ـ ١٦٣ .

والدعاية لها في الأشهر القليلة التي أعقبت انتهاء المؤتمر ، حتى قيام الجيوش الصليبية من أوطانها متجهة نحو الشرق .

تلقى البابا أوربان الثاني خطاب ألكسيوس الأول - إمبراطور الدولة البيزنطية - الذي يستحثُّ فيه أوربا اللاتينية لتساعده على صد هجمات المسلمين الأتراك ، تلقى هذا الخطاب بكل ترحاب ، وصادف هوى في نفسه ، لأنه جاء في وقت استحكمت فيه حلقة النزاع بين البابوية والإمبراطورية ، فاعتقد أن تلك الحروب الصليبية هي المخرج لانتصار السلطة الدينية على السلطة الزمنية ، ولرفعة شأن الكنيسة ، وطرد المسلمين من بيت المقدس (١) .

بعث البابا أوربان الثاني برسائل إلى أساقفة فرنسا والبلاد المجاورة ، يطلب إليهم الاجتماع به في مدينة كليرمونت ، للنظر في بعض المسائل الكنسية المتباينة ، ومن جملتها توقيع عقوبة الحرمان على ملك فرنسا (فيليب الأول) ، فتقاطرت إليه جميع الشعوب من أمراء ورؤساء كنائس ووفود ملوك وغيرهم ، حتى امتلأت المدن والقرى حول تلك المدينة بوفود الشعوب ، وبلغ من ضخامة الاحتشاد أن المكان الذي ينعقد به المجمع لم يتسع للمجتمعين ، فقرروا إقامة الكرسي البابوي على منصة مرتفعة تُطل على الفضاء ، خارج الباب الشرقي للمدينة .

انعقد مجمع كليرمونت في الفترة الواقعة بين ١٨ نوفمبر إلى ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م ، وأراد البابا أن يستغل هذه الفرصة لما هو أبعد وأهم من أغراض المجمع الظاهرة ، فأعلن أنه سوف يعقد جلسة علنية في يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر ليلقي بإعلان هام ، وفي ذلك اليوم وفي الجلسة العاشرة من هذا المؤتمر كان بطرس السايح جالسا بجانب البابا وهو الذي فتح خطاب إمبراطور الدولة البيزنطية ، وأخذ يعدد الشدائد التي يعانيها أهالي بيت المقدس ، قائلا إنه شاهد هناك المسيحيين مقيدين بالسلاسل الحديدية ، وإنه نظر

---

(١) انظر : العرب والروم واللاتين : جوزيف نسيم ، ص ٥٦ . محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٦٣ .

قبر المسيح " عليه السلام " محتقرا مهانا ، وإن زواره يتكبدون الذل ، ثم قام البابا وخطب الجموع قائلا :

أيها المسيحيون ، إن تلك الأرض المقدسة بحضور شخص المخلص فيها ، وتلك المغارة المرعية المختصة بفادينا ، وذلك الجبل الذي عليه تألم ومات من أجلنا ، وذلك الضريح الذي تنازل لأن يدفن فيه ضحيةً للموت ، كلها أضحت ميراثا لشعب غريب ، وغاب كل بهائها الأصلي ، وهياكلها قد خُربت ، وأشعة نورها الساطعة تحولت إلى ظلام حالك ، وهي تستحق الندب الشديد والبكاء ، ولم يعد لله من يعبده داخل المدينة المقدسة ، والمشرق الذي هو المهد والينبوع المقدس لإيماننا ، لم يعد مشهدا إلا لافتخارات أعمال المسلمين ، وأنطاكية وأفسس ونيقية قد صارت مدن الإسماعيليين ، والأتراك قدموا إلى أبواب القسطنطينية ، ومن هناك يهددون كل ممالك الغرب . أيتها الطائفة الفرنساوية العزيزة لدى الله ، إن كنيسة المسيحيين قد وضعت رجاها على شجاعتكم ، فأنا الذي أعرف تقواكم وكفاءتكم بالشجاعة والغيرة ، وقد اجتزت الجبال ، وحضرت لكي أنذر بكلام الله في وسط بلادكم . لقد آن الزمان الذي فيه تُحوّلون ضد الإسلام تلك الأسلحة التي اتخذتموها حتى الآن ضد بعضكم ، لأخذ الثأر لأنفسكم من أبناء جنسكم عن بعض إهانات ، فالحرب المقدسة المعتمدة الآن ليست هي لأخذ الثأر عن الإهانات ضد البشر ، بل عن الإهانات الصادرة ضد الله ، وليست هي لاكتساب مدينة واحدة فقط ، بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى ، فاتخذوا محجة القبر المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، فهذه الأراضي كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا . أيها الشجعان ، اذهبوا متسلحين بسيف مفاتيحي البطرسية ، واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافئات السماوية الأبدية ، فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم ، فالملك الشرقي يكون لكم قسما وميراثا ، وأما إذا قُتلتم فلكم المجد لأنكم تموتون في المكان الذي فيه مات يسوع المسيح .

ثم قام غريغوريوس تاليا بصوت عال صورة اعتراف عام ، وعند نهايته مد البابا يديه ومنح الجميع البركة ، وأكد على أن الذي يلقى مصرعه في المعركة يتحلل من ذنوبه ،

ويغفر الله له أخطاءه ، وكانت الاستجابة سريعة وقوية ، إذ تخلل الخطاب هتافات الحاضرين " هكذا أراد الله " .

ومن قوانين هذه الحرب التي أرساها هذا المجمع : ينبغي على كل مشترك في الحملة أن يحيك صليبا من القماش الأحمر على ردائه الخارجي من ناحية الكتف ، رمزا للتضحية والفداء ، والحركة التي اشترك فيها ، والفكرة التي خرج ليحارب من أجلها ، وكل من اتخذ الصليب ينبغي أن يوفي بالوعد بالسير إلى بيت المقدس ، فإذا بادر بالرجوع عن فكره أو لم يتوجه في الحملة ، تعرض للقطع من الكنيسة ([1]) .

فالبابا عرض في هذا الخطاب بأسلوبه الحماسي الجذاب ، مدى ما تعانيه الأراضي المقدسة وحجاجها من اضطهاد ومتاعب بسبب سيطرة المسلمين عليها ، الأمر الذي صار يتطلب من المسيحيين الغربيين الإسراع لنجدة إخوانهم في الشرق ، ولقي نداء البابا استجابة سريعة من جمهور الحاضرين في المجمع ، فصاحوا جميعا صيحة رجل واحد " هذه مشيئة الله " ، وجاءت هذه الصفحة إيذانا ببداية مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية ، التي قُدر لها أن تستمر عدة قرون .

ج ـ بطرس الناسك المبشِّر الأول بالحروب الصليبية :

وُلد بطرس الناسك باميان من أعمال بيكاردية إحدى مقاطعات فرنسا سنة ١٠٥٠ م ، وتوفي سنة ١١١٥ م ، وهو راهب فرنسي انقطع للتعبد بمغارة ، ولبس ثوبا رهبانيا من الصوف الخشن ، وكان معاصروه يعرفونه باسم " بطرس الضئيل " ، نظرا لضآلة حجمه ، ولكن غطاء الرأس الخاص بالنسَّاك الذي اعتاد لبسه أضفى عليه لقب " الناسك " الذي اشتهر به في التاريخ .

([1]) انظر : الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ١٠٥ و ١٠٦ . الأخبار السنية في الحروب الصليبية : سيد علي الحريري ، ص ٢١ . تاريخ الحروب الصليبية : ستيفن رنسيمان ، ج ١ ص ١٧٢ و ١٧٣ . محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٦٣ ـ ٦٥ . الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب : عزيز سوريال ، ص ١٠ و ١١ . وثائق الحروب الصليبية : ماهر حمادة ، ص ٩٩ ـ ١٠١ . بين الإسلام والغرب : الدكتور علي عبد الوهاب ، ص ٩٠ .

وكان رجلا قصير القامة ، أسود اللون ، يميل إلى الخشونة والزهد والتقشف في ملبسه ومأكله وفي حياته الخاصة والعامة ، وكان لا يأكل الخبز ولا اللحوم ، وغذاؤه الوحيد السمك وقليل من النبيذ ، وكان شديد الذكاء ، قوي الإرادة ، شديد الحماس ، يمتلك كل مواهب الخطيب الشعبي ، حتى أنه كان بمقدرته تحريك الشعوب بخطبه النارية ، وإثارة روح التعصب الكامنة فيهم ، وكانت شعوب الغرب المسيحي تعتقد أنه قديس وأن إرادة الله قد حلت فيه .

أثار خطاب البابا أوربان الثاني حركة شعبية ضخمة ترتبط في التاريخ عادة باسم بطرس الناسك ، هذا الرجل الذي حاول أن يقوم بالحج إلى بيت المقدس ، ولكنه تعرض للأذى من قِبل الترك ، فأرغموه ـ حسب روايته ـ على العودة دون أن يؤدي الحج ، وفي رواية أنه وصل فعلا المدينة المقدسة ، فوجدها في حكم المسلمين فأخذ يبكي وينتحب ، ثم تقابل مع بطريرك القدس وتحادثا مليا ، فأخبره البطريرك عن كيفية استيلاء المسلمين على بيت المقدس ، وصور الأذى التي ألحقوها بقومه ، فوعد بطرس البطريرك بأنه سيعمل جهده في حمل أهل أوربا لتخليص بيت المقدس من المسلمين ، ثم غادر بيت المقدس راجعا إلى رومية ، وهناك طلب مقابلة البابا أوربان الثاني ، ولما مثل بين يديه وأخبره بما قاله بطريرك القدس وعده بالمساعدة التامة ، آمرا إياه بالتوجه إلى جميع بلاد أوربا لأجل تحريض الأهالي على ذلك .

وخرج هذا الرجل من عند البابا وأخذ يجول في بلاد فرنسا وبعض ممالك أوربا ، راكبا على بغل ، قابضا بيديه على الصليب ، مناديا بحرب صليبية في الطرقات والأزقة والكنائس والأديرة ، وأن مسيحي الشرق يعانون العذاب ألوانا تحت حكم المسلمين ، وكانت الناس تتقاطر إليه ، مزدحمين حوله ، مقبِّلين أرديته ، فارشين الأعشاب في الأرض ليمر عليها ، ملقبيه بقديس ونبي ، باكين معه على شقاء أورشليم ، متعهدين بصرف موجوداتهم وخبراتهم وحياتهم لأجل إنقاذها من الأسر والهوان . ويبدو أن حماسة بطرس الناسك وفصاحته وهيئته الغريبة ـ بثيابه المهلهلة وقدميه العاريتين وحماره الأعرج ـ جعلت منه شخصية ذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء في غرب أوربا ، بحيث أنهم

كانوا لا يكادون يستمعون لحديثه حتى تغلب عليهم الحماسة فيستجيبون له في سرعة غريبة ، ويشرعون في الزحف صوب الشرق ، فلقد كان لدعايته أكبر الأثر في إشعال الحماس الديني في الغرب ، وفي التفاف الناس حوله لتخليص قبر المسيح " عليه السلام " ، واستطاع أن يكوّن مريدين له في كل بلدة زارها ، ليقوموا بدوره في دعوة الناس، وهذا يؤكد أن من يطلقون عليهم دعاة سلام ومحبة ، هم في الواقع دعاة حرب وخصام .

نادى بطرس الناسك السايح بالحملة الصليبية الأولى ، وخرج على رأسها سنة ١٠٩٦ م ، وكان جيشه البالغ عدده قرابة سبعة آلاف ، يتكون أغلبيته من المعدمين وأرقاء الأرض ، والرهبان والشيوخ ، والنساء والأطفال ، الذين لم يكن لديهم أي خبرة بفن الحرب والقتال واستعمال الأسلحة ، وكان كل ما يحمله معظمهم هو العصي والفؤوس وغير ذلك من أدوات الحرث والزرع ، ولم يكفُّوا منذ تركوا أوطانهم في الغرب إلى أن نزلوا في بيزنطة عن أعمال السلب وإشاعة الفوضى ، ولم يسمح لهم الإمبراطور البيزنطي بدخول العاصمة لزيارة معابدها وكنائسها وآثارها ، فقد كانت القسطنطينية تعج بالنفائس والكنوز ، وهو يعلم سلفا جشع أولئك القوم وأطماعهم ، وقد برهنوا فور وصولهم على ذلك ، حيث نهبوا بعض قصور المدينة ودور اللهو بها ، ثم أشعلوا النيران فيها ، كما أعملوا السلب والنهب في المنازل والكنائس ، ولم يتوقفوا لحظة عن الوحشية التي فاقت كل وصف .

والسلاجقة المسلمون يعلمون جشعهم وحبهم الشديد للمال ، فأرسلوا إليهم اثنين يخبرونهم بأن القوات المنشقة عنهم استولت على نيقية ، ومشغولة بتقسيم ما وجدته بها من كنوز على أفرادها ، فانطلقوا إلى نيقية ، فوقعوا في الكمائن التي نصبها الأتراك لهم ، ولم ينج من سيوف الأتراك سوى بطرس ونفر قليل من أتباعه . وبهذا أخفقت الحملة

الصليبية الشعبية الأولى في تحقيق أهدافها ، كما أخفقت في تحقيق علاقات طيبة مع المسيحيين الإغريق الذين ارتابوا فيها وفي حقيقة نواياها ([1]) ٠

فبطرس السايح أو الناسك أو الراهب هو المبشِّر الأول بالحروب الصليبية ، بل خرج على رأس الحملة الصليبية الشعبية الأولى ، التي كانت ثمرة دعوته وتطوافه في البلاد الأوربية ، ولأن هذه الحملة تحركت بناء على أخبار كاذبة عن ظلم المسلمين لمسيحي الشرق ، ولأنه كانت تنقصهم الخبرة العسكرية ، ولأن نواياهم لم تكن لتحرير بيت المقدس وقبر المسيح " عليه السلام " كما زعموا ، وإنما كانت للسلب والنهب والتخريب ، لكل هذه الأسباب فشلت هذه الحملة التي قادها بطرس الناسك ٠

رابعا : التبشير أخطر نتائج الحروب الصليبية :

أ ـ الصليبية التبشيرية بدل الصليبية العسكرية :

العمل التبشيري أو التنصيري في العالم العربي والإسلامي ، قديم قدم الإسلام نفسه ، ويمتد تاريخه إلى عصر النبوة والصحابة ، حيث حاول النصارى تقويض الدعوة الإسلامية بعدة وسائل ، كان منها : وسائل فكرية عن طريق الحوار كما حدث مع وفد نصارى نجران ([2]) ، ووسائل عسكرية عن طريق الحروب كما حدث في غزوة مؤتة ([3]) ،

([1]) انظر : العرب والروم واللاتين : جوزيف نسيم ، ص ١٥٤ ـ ١٧٠ ٠ الأخبار السنية في الحروب الصليبية : سيد علي الحريري ، ص ١٧ و ١٨ ٠ الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ١ ص ١٠٨ ٠ تاريخ الحروب الصليبية : ستيفن رنسيمان ، ج ١ ص ١٧٩ ٠ موجز تاريخ العالم : ويلز ، ص ٢٢١ ٠ محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٦٦ ٠

([2]) نجران : بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن ، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية ، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل ، كانوا يدينون بالنصرانية ٠ انظر : الرحيق المختوم : صفي الرحمن المباركفوري ، الطبعة السابعة عشرة ، ١٤٢٦ هـ ـ ٢٠٠٥ م ، دار الوفاء (المنصورة) ، ص ٣٨٥ ٠

([3]) غزوة مؤتة : حدثت في العام الثمن الهجري ، وسبب هذه المعركة أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بُصْرَى، فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني ـ وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قِبل قيصر ـ فأوثقه رباطاً، ثم قدَّمه فضرب عنقه. وكان قتل السفراء والرسل

وسائل اجتماعية عن طريق الإغراءات المادية كما حدث للنبي " صلى الله عليه وسلم " حين عرضوا عليه أن يأخذ من المال ما شاء ويكف عن دعوته ، ولكن كل هذه الوسائل لم يكتب لها النجاح في ذلك الوقت ، ليس لضعف الإمكانات المادية والبشرية عند النصارى وخصوم الإسلام وقتئذ ، ولكن لأن الإسلام ثابت الأركان في نفوس المسلمين آنذاك ، إلى أن كانت الحروب الصليبية التي تمخضت عن عمل تنصيري مؤسسي .

فلقد أفرزت الحروب الصليبية حركة تبشيرية منظمة ، ظلت تتسلل بكل الطرق إلى بلاد الإسلام ، لتؤدي الدور الذي عجزت عن القيام به الحروب . وبعد فشل الحروب الصليبية عسكريا حاول أصحابها أن يسلكوا طريقا آخر ، بعد أن تبين لهم أن الحملة المسلحة تُولِّد في المسلمين مقاومة لا طاقة لهم بها ، فإذا بالطريق الفكري . والتنصير يُعدُّ أحد دعائمه . هو الوجه الآخر للحروب الصليبية . فشنت دول أوربا على المسلمين حربا صليبية جديدة عن طريق التبشير (التنصير) ، واستخدموا لذلك الكنائس والمدارس والمستشفيات وفرَّقوا المبشرين في العالم (1) .

يقول مؤلف كتاب " حقيقة التبشير " : " التبشير المسيحي في العالم الإسلامي هو في حقيقته حرب صليبية ، وهو امتداد لتلك الحروب الصليبية الصاخبة التي بدأها الغرب المسيحي منذ تسعة قرون ، والتي فشلت في تحقيق أهدافها ، ثم تعرضت للإدانة الشديدة من قِبل الكثير من المسيحيين ، من مؤرخين ومبشرين وفلاسفة ... ونتيجة لفشل تلك الحروب الصليبية الصاخبة في تحقيق أهدافها . التي تتلخص في السيطرة على العالم الإسلامي واستنزاف ثرواته . فقد حاول الاستعمار الغربي تحقيق تلك الأغراض ، بعد تطويرها بما يناسب ظروف العصر ، وذلك باستخدام وسائل أخرى يأتي التبشير في

من أشنع الجرائم، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على النبي محمد صلى الله عليه وسلم حين نُقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف مقاتل . انظر : الموسوعة الحرة .

(1) انظر : العمل التنصيري في العالم العربي : الدكتور عبد الفتاح إسماعيل غراب ، ص ٢٢ - ٢٥ .

مقدمتها ، باعتباره غزوا صامتا يستطيع التسلل في الظلام ، خلف الأقنعة والشعارات الزائفة " ([1]) .

لقد انتفضت الأمة المسلمة ـ لما رأت الصليب فوق رءوس أعدائها ـ تحارب أعداء الله وأعداءها بكل سبيل ، واسترخصت الدم والروح في سبيل الله ، وتعجلت لقاء الله وجنته ، فأعطاها الله الحسنيين النصر والجنة ، وارتدت حملات الصليب على أعقابها خاسرة ، بعد معارك طاحنة استمرت قرنين كاملين . وأيقن الغرب المسيحي أن الغزو العسكري لديار الإسلام لابد مخفق مهما طال الزمن ، إذا لم يكن مصحوبا بغزو فكري يزلزل عوامل القوة الكامنة في الإسلام ، التي جعلت من المسلمين أمة واحدة متماسكة ، وأن الإسلام هو العقبة الكبرى في طريق الاستعمار الصليبي واليهودية العالمية ، ومن هنا شرعوا في تدبير الخطط للقضاء على مقومات الأمة العربية والبلاد الإسلامية بوجه عام ، وأجمعوا على محاربة الإسلام بلا سيف ، فقرروا دراسة الإسلام من شتى جوانبه ، وإثارة الشبهات حول عقيدته وشريعته عن طريق المستشرقين ، ثم العمل على زعزعة عقيدة المسلمين ، وزحزحتهم عن التمسك بشريعتهم بالترويج لهذه الشبهات عن طريق المبشرين (المنصرين) ([2]) .

إن التبشير المسيحي دخل البلاد العربية والإسلامية منذ الحروب الصليبية الأولى ، التي كان هدفها السيطرة على تلك البلاد ، ثم تحويلها إلى النصرانية ، ولما لم يستطيعوا ذلك وقُهروا ، نفَّسوا عن هزيمتهم في تلك الحروب بابتكار سلاح جديد هو الغزو الفكري والثقافي بقصد التبشير وتحويل المسلمين إلى النصرانية .

فمنذ انتشار الإسلام وظهوره على الدين كله ، وأهل الكتاب من يهود ونصارى يضمرون له ولأهله الحقد ، وزاد الأمر بالنسبة إلى النصارى أن شيئا دخل إلى نفوس

([1]) حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ١٥٦ و ١٥٧ .

([2]) انظر : جذور البلاء : عبد الله التل ، ص ١٩٦ و ١٩٧ . أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي : المستشار علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق ، دار الاعتصام (القاهرة) ، ص ١٧ و ١٨ .

قادتهم الدينيين والسياسيين منذ الحروب الصليبية ، وارتداد الصليبيين على أدبارهم مهزومين إثر حروب دامت قرنين من الزمان تقريبا ، فولَّد هذا في نفوس هؤلاء أحقادا وآلاما عزَّ عليهم نسيانها ، فكان من نتائجها مخططاتهم الهادفة للغارة على العالم الإسلامي بحروب من نوع آخر ، منها مخططات التبشير بالنصرانية بين الشعوب الإسلامية ، أو تحويل المسلمين عن دينهم ولو إلى الإلحاد والكفر بكل دين (١) .

وآمنت أوربا بعد الحروب الصليبية بأن استخدام البندقية لا يجدي في اقتلاع الإسلام ، ولا يزيد المسلمين إلا عنادا وإصرارا ، فقرروا أن يأتوا إلى قلوب المسلمين متسللين برفق ، فيذبحوا الإسلام داخل المسلم بالشهوات والفكر الملحد ، وأن يأتوا إلى الهيئة الاجتماعية فيدمِّروها بتدمير قواعدها الثابتة (اللغة ، ونظام الحكم ، وآداب الإسلام وسلوكياته في الأسرة والشارع والمدرسة والجيش والمصنع) ، وكان من هذه الحملات ما اتخذ صورة البحث العلمي تحت لافتة " الاستشراق " ، ويُعدُّ تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى هو تاريخ الصراع بين العالم النصراني الغربي في القرون الوسطى ، والشرق الإسلامي على الصعيدين الديني والفكري ، حيث خرج رجال الدين من جحورهم ، والباحثون من معاهدهم ، يهاجمون الإسلام بقصد التنفير منه ، ووضع الحواجز بينه وبين الشعوب النصرانية ، ولم يُعرف في تاريخ البشرية أن توافر عدد من الباحثين . على مدى عدة قرون . اختلفوا عقيدة ولسانا ووطنا على دراسة دين لا يؤمنون به كما فعل المستشرقون (٢) . فالدرس العظيم الذي تعلَّمه الغربيون بعد فشل حروبهم الصليبية

---

(١) انظر : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : الدكتور محمد البهي ، الطبعة الحادية عشرة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م ، مكتبة وهبة (القاهرة) ، ص ٤٢٤ . التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية : الدكتور أحمد سعد الدين البسطي ، ص ٣ . التبشير الخطر الداهم : الدكتور عبد الكريم بلال ، ص ٣٠ و ٣١ .

(٢) انظر : الاستشراق وجه للاستعمار الفكري : عبد المتعال محمد الجبري ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م ، مكتبة وهبة (القاهرة) ، ص ١٩٦ . الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري :

التي استمرت قرنين من الزمان ، هو أن القوة العسكرية لا تجدي مع المسلمين شيئا ، ففكروا في حرب من نوع جديد هي الحرب الفكرية ، التي لا تسمع فيها قعقعة السلاح ، وإنما سهامٌ موجهة إلى العقل لتشتيته ، وإلى القلب لتشكيكه ٠ وكان أخطر سلاح استُخدم في هذه المعركة الجديدة هو الاستشراق الذي يصنع السمَّ (الشبهات) والتبشير (التنصير) الذي يروِّجه ٠

ب - أول من قام بالتبشير بعد الحروب الصليبية :

إن النصارى يتمنَّون أن ينظروا إلى العالم كله وقد صار نصرانيا ، حتى لو لم يكن هذا الأمر حبا في النصرانية ، بل بغضا في الإسلام وكراهية للمسلمين ٠ فالنصارى كلهم منصِّرون ، ولكن حين أتكلم عن أول مبشر (منصِّر) قام بهذه المهمة ، واستفحل خطره فذلك من باب التنظيم العلمي ، والتقعيد لهذا العمل ، وإذا كان البابا أوربان الثاني هو أبو الحروب الصليبية ، فإن البابا أنوسان الثاني هو أبو التبشير ومنشئه في أوربا ، وقد دامت بابويته من سنة ١١٩٨ م إلى سنة ١٢١٦ م ، وهو الذي بارك " فرانسو دينز " ونصَّبه للتبشير بالمسيحية ونشرها بين المسلمين في الشرق ، وكان ذلك في سنة ١٢١٢ م (١) ٠

ولقد فشلت الصليبية العسكرية فشلا ذريعا في غزو بلاد المسلمين ، لتنتهي مرحلة وتبدأ مرحلة أخرى ، وضع معالمها ملك فرنسا " لويس التاسع " قائد الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ١٢٤٩ م ، حيث أتاحت له معاناته في سجنه (بالمنصورة) فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي يجب على الغرب اتِّباعها بعد ذلك ، إذا ما فكر في غزو الشرق الإسلامي ، وكانت بنود هذه الوصية هي تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية فكرية ، يكون سلاحها إثارة الخلافات بين المسلمين

الدكتور محمود حمدي زقزوق ، ص ٢٨ ٠ نافذة على الاستشراق النشأة والأهداف : الدكتور ياسر محمد عبد اللطيف ، ص ٢ و ٣ ٠

(١) انظر : التبشير الخطر الداهم : الدكتور عبد الكريم بلال ، ص ٥٠ و ٥١ ٠ بين الإسلام والغرب : الدكتور علي عبد الوهاب ، ص ٢٣٧ ٠

لتفكيك وحدتهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أن يتعلم الغرب علوم المسلمين ثم يهزمهم بأسلحتهم وفنونهم ذاتها ، بتشويه عقائد الإسلام وشريعته وتاريخه ([1]) .

استرد المسلمون بيت المقدس من الصليبيين سنة ١٢٤٤ م ، وبادر بطريرك بيت المقدس بإرسال سفارة إلى الغرب الأوربي ، ليشرح للبابوية وملوك الغرب وأمرائه خطورة موقف الصليبيين بالشام ، ويطلب منهم المعونة العاجلة ، وأدت جهود هذه السفارة إلى عقد مجمع ليون ([2]) في صيف سنة ١٢٤٥ م ، وهو المجمع الذي قرر ضرورة إنفاذ حملة صليبية جديدة إلى الشرق لتدارك الموقف قبل فوات الأوان ، ولكن الصراع كان قد اشتد مرة أخرى في الغرب الأوربي بين البابوية والإمبراطورية ، الأمر الذي حال دون تكاتف البلدان الأوربية في المشروع الصليبي الجديد .

وكان لويس التاسع ملك فرنسا . الذي اشتهر في التاريخ بورعه وتقواه حتى لُقِّب بالقديس . قد أصيب بمرض خطير في أواخر سنة ١٢٤٤ م ، فنذر أثناء مرضه أن يقوم بحملة صليبية إذا شُفي ، ولما تم شفاؤه وجد في تلك الدعوة الجديدة فرصة طيبة للوفاء بنذره ، وأخذ يُعدُّ العدة لحملته طوال سنوات ثلاث ، حتى أبحر من فرنسا أواخر أغسطس سنة ١٢٤٨ م قاصدا الشرق ، ومصطحبا معه زوجته وأخويه ، فضلا عن عدد آخر من كبار الأمراء الفرنسيين وصغارهم .

وقد انتصر لويس التاسع في أول الأمر ، واستولى على مدينة دمياط وضواحيها ، وذلك بعد أن هجرها أهلها وجيشها ، وذهبوا إلى مدينة المنصورة ، وتحصنوا هناك مع الجيوش الإسلامية ، فتبعهم لويس التاسع بجيشه ، وهناك دارت معركة طاحنة سنة ١٢٥٠ م ،

([1]) الاستشراق بين الجحود والإنصاف : الدكتور عبد الله سمك ، ص ٦٦ بتصرف .

([2]) مجمع ليون : يعتبر مجمع ليون سنة ١٢٤٥ م المجمع المسكوني الثالث عشر في الكنيسة الكاثوليكية، ترأسه البابا إينوسنت الرابع ، بعد خلافه مع الإمبراطور فريدريك الثاني ، حضر المجمع ٢٥٠ أسقف، فضلاً عن رؤساء الأديرة . أقرّ المجمع إرسال الحملة الصليبية السابعة، وعلى صعيد إدارة الكنيسة وجه المجمع ٣٨ وثيقة في تنظيم عمل الكنيسة والرهبانيات . انظر : الموسوعة الحرة .

انتهت بهزيمة لويس ومن معه من الجنود ، وقُتل منهم عدد كبير ، وأُسر الملك لويس ومن معه من النبلاء والقساوسة الفرنسيين الذين كانوا يحيطون به ، وقيَّدوهم بالسلاسل الحديدية ، وسُجنوا في سجنٍ بالمنصورة ، ولقد أُكرم لويس التاسع في أسره ، فخُصِّص له من يقوم بخدمته ، كما رُتِّب له كل ما يحتاج إليه من مأكل ومشرب ، ثم دارت المخابرات بين الحكومة المصرية والملك لويس التاسع المحبوس بشأن إطلاق سراحه هو ومن معه من الأسرى ، وتم الصلح على أن تُسلَّم مدينة دمياط ، وتُدفع فدية مالية كبيرة مقدارها ثمانمائة ألف دينار ، وتطلق الحكومة المصرية سراح جميع الأسرى ، وقد تم دفع المبلغ وإطلاق سراح الأسرى .

وأخذ لويس ـ وهو في سوريا [1] ـ يستعد لتحصين بلادها ، وأثناء ذلك أرسلت إليه أمُّه ونائبته على المملكة الفرنسية بضرورة عودته إلى مملكته ، لأن الإنجليز استغلوا فرصة غيابه وأغاروا على فرنسا ، فعزم على السفر ، واستغاث به صليبيو سوريا ، وطلبوا منه البقاء معهم خوفا من استيلاء المسلمين على بلادهم بعد سفره ، فأجاب طلبهم وعدل عن السفر إلى مملكته ، ولما علم لويس أن أوربا ومملكته لا ترسل إليه عساكر ، وخاف من فشله ، طلب جنودا على نفقته ، فجاءته عساكر برواتب شهرية ومصاريف ، حتى فرغت خزائنه ، ولم يتمكن من صد هجمات المسلمين ، ثم أتاه خبر من فرنسا يفيد

---

[1] سوريا : التسمية الرسمية لها الجمهورية العربية السورية ، عاصمتها مدينة دمشق ، تقع ضمن منطقة الشرق الأوسط في غرب آسيا ، يحدها شمالا تركيا ، وشرقا العراق ، وجنوبا الأردن ، وغربا فلسطين ولبنان والبحر الأبيض المتوسط ، ومساحتها ١٨٥١٨٠ كم مربع . انظر : التلمود دراسة تأصيلية (ماجستير) : محمود عبد الله علي عبد الحميد ، ١٤٣٦ هـ ـ ٢٠١٥ م ، كلية الدعوة الإسلامية بالقاهرة ـ قسم الأديان والمذاهب ، ص ٥٧ .

موت والدته وسرعة حضوره لتسلُّم المملكة ، وفعلا سافر إلى مملكته وانتهت الحملة الصليبية السابعة ([1]) .

فالجذور الأولى للتبشير بالنصرانية ضد المسلمين ، بدأت عقب عودة لويس التاسع إلى بلاده ، وفي القرن الثالث عشر الميلادي بعد سنة ١٢٥٠ م ، حيث ظهرت وثيقة خطيرة تلقي الضوء على تحوُّل الصليبيين من الغزو العسكري الذي يكلِّف الدول الأوربية الأموال الطائلة ، والأرواح الكثيرة ، دون أدنى مكسب مادي أو معنوي ، إلى الغزو الفكري ، وهي وثيقة القديس لويس التاسع ، الذي أيقن أنه لا سبيل إلى النصر والتغلب على المسلمين عن طريق القوة الحربية ، لأن تدينهم بالإسلام يدفعهم للمقاومة والجهاد وبذْل النفس في سبيل الله لحماية ديار الإسلام وصون الحرمات والأعراض ، والمسلمون قادرون دوما على الانطلاق من عقيدتهم إلى الجهاد ودحر الغزاة ، وأنه لابد من سبيل آخر ، وهو تحويل التفكير الإسلامي وترويض المسلمين عن طريق الغزو الفكري ، لتزييف عقيدتهم التي تدفعهم إلى الجهاد والاستشهاد .

وكان ما انتهى إليه لويس التاسع : إنه لم يعد في وسع الكنيسة أو فرنسا مواجهة الإسلام ، وإن هذا العبء لابد أن تقوم به أوربا لتضييق الخناق على الإسلام ثم القضاء عليه ، ويتم لها التخلص من الحائل الذي يحول دون تملُّكها لآسيا وأفريقيا . ورسم لويس الخطة التي تمكنه من مواجهة الإسلام والنيل من قدرته ، وتقوم على : تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية سلمية ، تستهدف الغرض نفسه ، لا فرق بين النوعين إلا من حيث نوع السلاح المستخدم في المعركة ، وتجنيد المبشرين الغربيين في هذه المعركة ، لمحاربة تعاليم الإسلام ووقف انتشاره ثم القضاء عليه معنويا ، واعتبار هؤلاء المبشرين في تلك المعارك جنودا للغرب ، وأشار لويس على البابا أنوسنت الرابع الذي اعتلى عرش

([1]) انظر : الأخبار السنية في الحروب الصليبية : سيد علي الحريري ، ص ٣٢٠ - ٣٢٧ . الحركة الصليبية : الدكتور سعيد عبد الفتاح ، ج ٢ ص ٨٣٢ و ٨٣٣ و ٨٤٨ - ٨٥٩ . التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية : الدكتور أحمد سعد الدين البسطي ، ص ١٦ .

البابوية من سنة ١٢٤٣ م إلى سنة ١٢٥٤ م ، بإنشاء جمعية التبشير الأولى سنة ١٢٥٣ م ، وهي الجمعية التي ضمت عددا كبيرا من المبشرين ، وبضرورة تعليم هؤلاء المبشرين اللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية ، وإنشاء كراسي وأقسام في دور التعليم لمعرفة عادات وتقاليد الأمة الإسلامية ٠ يقول أحد المؤرخين الغربيين : إن الملك لويس التاسع كان بذلك في مقدمة كبار ساسة الغرب ، الذين وضعوا للغرب الخطوط الرئيسية لسياسة جديدة شملت مستقبل آسيا وأفريقيا بأسرهما ([١]) ٠

فأول من تفتَّق ذهنه عن ضرورة استبدال الحرب الفكرية عن طريق التبشير بالحروب الصليبية العسكرية ، هو لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد الحملة الصليبية السابعة ، وتوصَّل إلى هذه الحقيقة وهو في سجنه بالمنصورة ، ثم أعلنها ببلاده بعد إطلاق سراحه ، وعلى ضوء هذه الحقيقة رسم الأوربيون خططهم لغزو العالم العربي والإسلامي فكريا ، ودفعوا بإرسالياتهم التبشيرية بمختلف طوائفها لتنفيذ تلك الخطط ، ودعموهم بكل ما يحتاجون إليه من مال ٠

وقام " ريموند لول " ([٢]) بالتنفيذ العملي لخطة لويس التاسع ، وهو أول من تولى التبشير بالنصرانية بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها ، حيث تعلم اللغة العربية بكل مشقَّة ، وجال في بلاد الإسلام وناقش علماء المسلمين ٠ ولقد كرَّس حياته لمهمة التبشير بالمسيحية بين المسلمين بالذات ، فأقنع ملك ميورقة بإنشاء كلية

([١]) انظر : التبشير وأثره في البلاد العربية والإسلامية : الدكتور : أحمد سعد الدين البسطي ، ص ١٨ ٠ أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي : المستشار علي جريشة ، ص ١٩ ٠ محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٧٤ ٠ حقيقة التبشير : اللواء أحمد عبد الوهاب ، ص ١٦ و ١٥٣ و ١٥٤ ٠

([٢]) ريموند لول : أسباني فيلسوف ، ومن أسرة ميسورة الحال. أُولع بالشعر، ثم انضم إلى رهبنة الفرنسيسكان. انكب على دراسة اللغة العربيةوالثقافة الإسلامية، قاصداً دعوة المسلمين إلى المسيحية. سافر من أجل ذلك إلى شمال إفريقية غير مرة، ولقي حتفه هناك. حاول في مؤلفاته، وخاصة «الفن الأكبر»، أن يدافع عن المسيحية ضد الإسلام وضد فلسفة ابن رشد0 انظر : الموسوعة الحرة ٠

الثالوث المقدس سنة ١٢٧٦ م ، وهناك أخذ يُعدُّ مجموعة من المنصرين للقيام بمهمتهم ، وأهم وسائل الإعداد تعليمهم اللغة العربية ، ووضْع نوع من المنطق الذي يجب أن يُستخدم في الجدل مع المسلمين ، وبعد أن قضى ريمون عشر سنوات في إعداد هذه المجموعة أوفدهم إلى شمال أفريقية ، للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية . وفي سنة ١٢٩٤ م اقترح ريموند على البابا " سلستين الخامس " [١] خطتين للتبشير بين المسلمين : أولاهما : أن يُنصَّر المسلمون بالقوة إذا لم تنفع فيهم الجهود السلمية ، ثانيتهما : أن تتخذ الكنيسة العلم والمدرسة وسيلة للتبشير .

ولقد طُرد ريموند لول من شمال إفريقيا بسبب نشاطه التبشيري المحموم ، لكنه عاد إليها لمحاولة نشر المسيحية بين المسلمين ، ونزل في الجزائر ، وطلب مناظرة بعض العلماء المسلمين ، وثار الرأي العام عليه ، وحُكم عليه بالسجن ستة أشهر ، وطُرد بعدها من البلاد ، ولكنه ترك لمسات واضحة ، وبفضل جهوده تم إنشاء ستة معاهد لتدريس اللغات الشرقية في أوربا ، لأنه لا يمكن للمبشر أن ينجح في مهمته إلا إذا عرف لغة القوم الذين يبشر برسالته بينهم [٢] . فريموند لول هو أول من قام بالتبشير عمليا بعد فشل الحروب الصليبية العسكرية ، وهو الذي حوَّل خطة لويس التاسع وأحلامه

---

[١] سلستين الخامس : (١٢١٥ ـ ١٢٩٦ م) ، بابا الكنيسة الكاثوليكية في الفترة من 5 يوليو 1294 إلى 13 ديسمبر من العام ذاته. ولد سلستين الخامس في مملكة صقلية ، والتحق بسلك الرهبنة ضمن نظام القديس بينديكت وهو في السابعة عشرة من عمره. يُعدُّ سلستين الخامس آخر بابا انتُخب بطريقة غير طريقة الاقتراع السري في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية، وقد تنازل سلستين الخامس طائعًا عن البابوية بعد بضعة أشهر من توليه الكرسي، ولم يحمل أي بابا بعده اسم سلستين حتى اليوم . انظر : الموسوعة الحرة .

[٢] انظر : الغارة على العالم الإسلامي : شاتليه ، ص ١٢ و ١٣ . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة : الندوة العالمية للشباب الإسلامي (الرياض) ، ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م ، ص ١٥٩ . العمل التنصيري : الدكتور عبد الفتاح إسماعيل ، ص ٢٣ . محاضرات في مفهوم التبشير : الدكتور محمد زين العابدين ، ص ٧٤ و ٧٥ . التبشير والاستشراق أحقاد وحملات : المستشار محمد عزت الطهطاوي ، ص ١٨ و ١٩ . التبشير الخطر الداهم : الدكتور عبد الكريم بلال ، ص ٥١ و ٥٢ .

وآماله إلى واقع عملي تطبيقي ، وكرَّس حياته لهذا الغرض ، وتحمل في سبيل تحقيقه الكثير من الجهد والمشقة بسبب السفر والتنقل بين البلاد للتنصير ، بل سُجن لنشاطه التنصيري المحموم .

أكتفي بهذا القدر من الحديث عن نشأة التبشير ، ذلك التبشير الذي حرَّف الدين الذي جاء به عيسى " عليه السلام " ، وخرج به من المحلية إلى العالمية ، مما يجعله تنصيرا لا تبشيرا .

هذه النشأة التي مرت بثلاث مراحل :

١ . مرحلة ميلاد على يد بولس ، الذي يرجع إليه الوزر الأول في تحريف المسيحية وابتعادها عن أديان التوحيد السماوية ، وانتسابها إليه أكثر من انتسابها للمسيح " عليه السلام " ، وخطيئته الثانية بعد تحريف المسيحية ، خروجه بها من إطارها الإقليمي كدعوة خاصة موجهة لبني إسرائيل ، إلى الإطار العالمي ، مما أُطلق عليه "رسول الأمم" .

٢ . مرحلة طفولة على يد الإمبراطور الروماني " قسطنطين " ، الذي دعم الاتجاه البولسي بكل ما يملك من قوة السلطان والمال ، فأيد قرارات مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م التي وضعت بذرة التثليث ، وأعلن دخوله في المسيحية مكيدة ، واعترف بها ديانة رسمية في إمبراطوريته، ورفع الاضطهاد عن أتباعها، وأرسل رسله للدعوة إليها في إطار عالمي .

٣ . مرحلة شباب وكانت بعد فشل الحروب الصليبية ، التي دعا إليها وحرض عليها بل قاد بعض حملاتها بابوات الكنيسة ورجالاتها ، وهنا أدرك الصليبيون أن تلك الحروب العسكرية لن تجدي مع المسلمين ولن تحقق أهدافهم ، فقرروا استخدام الحرب الفكرية والغزو الثقافي ، بهدف تنصير المسلمين أو على الأقل زعزعة عقيدتهم بتشويه الإسلام في نفوسهم ، تلك المرحلة التي وضع معالمها ملك فرنسا لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة على مصر ، والتي تدور حول تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات أخرى فكرية ، وأشار لويس على البابا أنوسنت الرابع بإنشاء جمعية التبشير الأولى سنة

١٢٥٣ م ، وقام ريموند لول بالتنفيذ العملي لخطة لويس التاسع ، وهو أول من قام بالتبشير بالنصرانية بعد فشل الحروب الصليبية ٠

وقام بعد ريموند جيش ضخم من المبشرين أو بالأحرىٰ المنصرين ، يعمل علىٰ قدم وساق منذ الحروب الصليبية وحتىٰ الآن ، علىٰ تنصير المسلمين وتشويه الإسلام عقيدة وشريعة ، من خلال إرسالياته التبشيرية المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي ، مستخدما التعليم والتطبيب والأعمال الاجتماعية المشبوهة وأمواله الضخمة ، مستغلا جهل المسلمين ومرضهم وفقرهم ، في تحقيق أهدافه التي لن تتحقق بإذن الله ، قال تعالىٰ : " إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون " ([1]) ، وقال تعالىٰ : " يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبىٰ الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون " ([2]) ، صدق الله العظيم ٠

([1]) سورة الأنفال : الآية ٣٦ ٠

([2]) سورة التوبة : الآية ٣٢ ٠

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وأشهد أن لا إله إلا الله الكبير المتعال ، وأشهد أن سيدنا محمدا خيرُ الأنام وخاتم الأنبياء ، صلِّ اللهم وسلم وبارك على هذا النبي والآل والصحب الكرام ٠ ٠٠٠ أما بعد ٠٠٠

ففي ختام هذا البحث أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفعني والقارئ الكريم به ، وأن يختم لنا بخاتمة السعادة أجمعين ، وأقدم في خاتمة هذا البحث أهم نتائجه وتوصياته وفهارسه ٠

أولا : أهم النتائج والتوصيات :

أ ـ أهم النتائج : من أهم النتائج التي خرج بها هذا البحث ، ما يلي :

١ . لبولس الرسول شأن عظيم في المسيحية الحالية ، فهي تنسب إليه أكثر مما تنسب لأحد سواه ، رغم أنه تحوَّل فجأة إثر رؤياه النهارية من يهوديته واضطهاده للمسيحية وأتباعها أشد الاضطهاد ، إلى الإيمان بالمسيحية ، بل أصبح رسولا لها ، ثم كانت رؤياه الليلية التي قادته للتبشير بالمسيحية بين الأمم ، فأصبح داعية المسيحية الأول والمطوِّف بها شرقا وغربا ، ويرى كثير من الباحثين أن عداوة بولس للمسيحية هي التي قادته للدخول فيها ، لهدمها من الداخل بسلاح جديد ٠

٢ . المسيحية التي بشَّر بها بولس بين الأمم تختلف تماما عن مسيحية المسيح " عليه السلام " ، فلقد أدخل على المسيحية الحقة عقائد كانت هي الأساس الذي أخذت به المجامع الكنسية ، وقررتها كعقيدة نهائية للمسيحيين فيما بعد ٠ كما ألغى بولس أغلب أحكام الشريعة اليهودية ، بحجة أنها نُسخت بتعاليم المسيح " عليه السلام " ، كما أدخل على تلك الشريعة طقوسا كثيرة ٠ ومعظم المصادر المسيحية الموجودة الآن من عمل بولس أو من عمل أتباعه ، ورسائله الأربعة عشر تمثل في حجمها خمسة أسداس الرسائل جميعا ، وهي وحدها مصدر التشريع في المسيحية الحاضرة ٠

٣ . بولس هو الذي نقل المسيحية من المحلية كرسالة خاصة ببني إسرائيل . حسب نصوصٍ كثيرة في العهد الجديد . إلى العالمية وبشَّر بها بين الأمم ، وأورد نصوصا في العهد

الجديد ـ خاصة رسائله ـ تدعم هذا الاتجاه ، وكلها نصوص مردود عليها إما بضعف سندها ، أو مخالفتها للنصوص الأخرى الكثيرة التي تتحدث عن خصوصية رسالة المسيح " عليه السلام " ببني إسرائيل ، أو أنها ـ بفرض صحتها ـ موجهة إلى اليهود المنتشرين في أنحاء العالم ٠

٤ ـ لم يكن بولس المبشر المسيحي الأول فقط ، بل هو واضع أسس التبشير المسيحي الصليبي العالمي ، وعلى خطاه سار المبشرون من بعده حتى يومنا هذه ٠ ويذكر سفر أعمال الرسل لبولس عدة جولات ورحلات تبشيرية بين الأمم ، ويلاحظ عليها : غضب اليهود المتمسكين بدينهم من دعوة بولس غير اليهود ، واختلاف برنابا مع بولس ومفارقته حينما بدأ يوجه دعوته إلى غير اليهود من الأمم ٠

٥ ـ هناك أوجه شبه كبيرة بين بولس الرسول وقسطنطين الكبير ، فكما كان للأول دور كبير في تحريف المسيحية والخروج بها إلى العالمية ، كان للثاني نفس الدور في التحريف وفرض العقيدة التي رآها ، والتبشير بها ونشرها في أنحاء إمبراطوريته ٠ وكما اضطهد الأول وهو يهودي المسيحية ، ثم ادَّعى الدخول فيها لتدميرها من الداخل ، كذلك نالت المسيحية صنوف الاضطهاد على يد أباطرة الرومان السابقين لقسطنطين ، الذي ادَّعى الدخول في المسيحية لضمان وحدة إمبراطوريته ، وقرر التسامح مع المسيحية وأتباعها ، وأصبحت فيما بعد الدين الرسمي للإمبراطورية ٠ وتحولت المسيحية من ديانة مضطهِدة محظورة يُسام أهلها سوء العذاب ، إلى ديانة رسمية محظوظة تنتشر في كل مكان بقوة السلطان وعطاءاته ، ومضطهِدة بكسر الهاء ، ولم تضطهد هذه المرة أعداءها ، بل استعانت بالسلطان على اضطهاد بني جلدتها ممن هم على التوحيد ودين المسيح " عليه السلام " ٠

٦ ـ مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م أهم المجامع المسيحية ، لأنه كان البذرة الأولى وبداية التخطيط لعقيدة التثليث ، ولقد تبنَّت الأغلبية الساحقة في مجمع نيقية رأي آريوس التوحيدي ، فأصدر الإمبراطور قراره بفض الاجتماع ، ثم أُعيد عقد الاجتماع بعد ذلك ، ولم يحضره إلا الأعضاء القائلون بالتثليث ، وأصدر المجمع قراراته ـ بقوة السلطان ـ

وأهمها : قانون الإيمان الذي تضمن ألوهية المسيح " عليه السلام " ، وصلبه ، وقيامته ، ودينونته للبشر ، وهي أخطر العقائد المسيحية البولسية ، كما قرر المجمع حرم آريوس ونفيه ، وتحريم بدعته ، وحرق كتاباته . وهكذا نرى أن التوحيد يُغلب رغم كثرة أتباعه ، والتثليث يَغلب بالقهر والسلطان وبقايا الوثنية .

٧ . كان للحروب الصليبية دوافع كثيرة ، يأتي في مقدمتها الدافع الديني ، وهو تخليص القبر والأراضي المقدسة ونجدة إخوانهم المسيحيين من اضطهاد المسلمين الشرقيين ، ووقف المد الإسلامي ، ونشر الكاثوليكية في جميع أنحاء العالم ، ورغم أهمية هذا الدافع الديني إلا أنه لم يكن الدافع الوحيد ، بل كان ستارا لدوافع أخرى حقيقية : سياسية واستعمارية واقتصادية واجتماعية وحضارية .

٨ . وقفت الكنيسة الكاثوليكية الغربية من الإسلام موقف العداء ، لأنها رأت في بقائه تدميرها ، وفي تدميره بقاءها ، وكان لهذا العداء دور فعال في توجيه الكنيسة للحروب الصليبية ، بل اشترك بابوات الكنيسة ورهبانها في إشعال الحروب الصليبية وإطلاق شرارتها الأولى بخطاباتهم واشتراكهم الفعلي في تلك الحروب ، فها هو البابا أوربان الثاني يقوم سنة ١٠٩٥ م بدعوة حكام أوربا وشعوبها بالكف عن الحروب المحلية ، والخروج بدلا من ذلك لمحاربة العالم الإسلامي والاستيلاء على خيراته ، وتخليص القبر المقدس ، مع وعد بغفران الخطايا لقتلى تلك المعارك . وبطرس الراهب أو الناسك أو السايح هو المبشر الأول بالحروب الصليبية ، بل خرج على رأس الحملة الصليبية الشعبية الأولى ، التي كانت ثمرة دعوته وتطوافه في البلاد الأوربية .

٩ . أفرزت الحروب الصليبية حركة تبشيرية (تنصيرية) منظَّمة ، ظلت تتسلَّل بكل الطرق إلى بلاد الإسلام ، لتؤدي الدور الذي عجزت عن القيام به الحروب العسكرية . وإذا كان البابا أوربان الثاني هو أبو الحروب الصليبية ، فإن البابا أنوسان الثاني هو أبو التبشير (التنصير) ومنشئه في أوربا ، وهو الذي بارك فرانسو دينز ونصَّبه للتبشير بالمسيحية ونشرها بين المسلمين في الشرق ، وكان ذلك في سنة ١٢١٢ م .

١٠ . لقد فشلت الصليبية العسكرية فشلا ذريعا في غزو بلاد المسلمين ، لتنتهي مرحلة وتبدأ مرحلة أخرى ، وضع معالمها ملك فرنسا لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة على مصر سنة ١٢٤٩ م ، حيث أتاحت له معاناته في سجنه بالمنصورة فرصة هادئة ليفكر بعمق في السياسة التي يجب على الغرب اتِّباعها في غزو الشرق الإسلامي ، وتدور حول تحويل الحملات الصليبية العسكرية إلى حملات صليبية فكرية . وأشار لويس التاسع على البابا أنوسنت الرابع بإنشاء جمعية التبشير الأولى سنة ١٢٥٣ م ، وهي الجمعية التي ضمت عددا كبيرا من المبشرين .

١١ . قام ريموند لول بالتنفيذ العملي لخطة لويس التاسع ، وهو أول من قام عمليا بالتبشير بالنصرانية بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها ، وهو الذي أقنع ملك ميورقة بإنشاء كلية الثالوث المقدس سنة ١٢٧٦ م ، وهناك أخذ يُعدُّ مجموعة من المنصِّرين للقيام بمهمتهم ، وبعد أن قضى ريموند عشر سنوات في إعداد هذه المجموعة أوفدهم إلى شمال أفريقية للتبشير بالمسيحية . وفي سنة ١٢٩٤ م اقترح ريموند لول على البابا سلستين الخامس خطتين للتبشير بالمسيحية بين المسلمين : أولاهما : أن يُنصَّر المسلمون بالقوة إذا لم تنفع فيهم الجهود السلمية ، ثانيتهما : أن تتخذ الكنيسة العلم والمدرسة وسيلة للتبشير، وهي الخطة التي لاقت قبولا من جانب الفاتيكان ، وعمل على تنفيذها .

ب . أهم التوصيات : بعد هذه الجولة حول " مراحل نشأة التبشير (التنصير) ، يوصي البحث بالآتي :

١ . تدريس مادة التبشير (التنصير) والاستشراق في كل كليات جامعة الأزهر ، وإنشاء أقسام علمية لهذا التخصص بالجامعات الإسلامية ، لتحصين الشباب المسلم من هذا الخطر الداهم ، وتثقيفه وتعريفه صحيح الإسلام وعظمته ووسطيته .

٢ . الرد على الشبهات والافتراءات والأضاليل التي تثار حول الإسلام من خصومه في الداخل والخارج ، ونشر هذا الرد على العالمين ، من خلال وسائل الإعلام والتكنولوجية

المعاصرة ، لإبطال تلك الألغام التي يحاول هؤلاء المنصِّرون وغيرهم من الحاقدين على الإسلام زرعها في نفوس وعقول المسلمين ٠

٣ ـ إلقاء مزيد من البحث والدراسة حول الموضوعات الآتية : الرؤيا ودورها في تحريف المسيحية ٠ أوجه الشبه بين بولس الرسول وقسطنطين الكبير وما أحدثاه في المسيحية ٠ عقد مقارنة بين محتوى بشارة المسيح " عليه السلام " (التبشير) ومحتوى بشارة بولس (التنصير) ٠ رحلات وجولات بولس التبشيرية " دراسة تحليلية نقدية " ٠ الاضطهادات والمجامع وأثرهما في الديانة المسيحية ٠ دور الكنيسة ورجالها في الحروب الصليبية قديما وحديثا ٠ التتبُّع التاريخي للتبشير (التنصير) وتطوره بعد الحروب الصليبية وحتى الآن ٠ مناهج وأساليب ووسائل التبشير(التنصير) " دراسة تحليلية نقدية " ٠ مقارنة بين تلك المناهج والأساليب والوسائل في المسيحية والإسلام٠